مختارات قصصية

يوسف إدريس

الطـــــابور
من جمهورية فرحات

تتشابه الأسواق في الأرياف ولا تكاد تختلف ، فكل منها فضاء واسع يحده سور وله باب وعلى أرضه دكاكين بضاعة ذات رفوف فارغة قد لوحت أخشابها حرارة الشمس وليالي الشتاء ، ثم مصاطب مبعثرة مصنوعة من تبن يؤلف بينه طين . ويوم السوق هو بلا شك أروع الأيام وأشهرها وهو الزحمة التي تحدث كل حين مرة معلنة وكأنها ساعة بشرية هائلة انقضاء سبعة أيام ، وفراغ جيوب وامتلاء جيوب ، وقبض أجور واختلاس أجور ، و شبع ناس و جوع ناس ، و تقيس العمر..

وبعد أن ينفض السوق يبقى الفضاء لا يؤمه إلا الغربان وأسراب الخرفان والماعز الطوافة وفرق الرياضة من التلاميذ والمباريات وكرة القدم ..

وتتشابه الأسواق في الأرياف إلا سوق السبت في تلك الناحية فقد كان يتميز بظاهرة غريبة ، فيسوره كله كان مصنوعا من حدائد لها أطراف مدببة ماعدا جزءا صغيرا لا يتجاوز المترين قد بني من الدبش والأسمنت وأحكم بناؤه .

ومن قديم والناس يختلفون في امر ذلك الحائط الصغير ..

كانوا يقولون أول الأمر إن تحت الحائط كنزا يفتح عن ديك يؤذن ذات فجر ويكون للموعود . ولكن ما لبث هذا القول إن بهت واصبح التسليم به كالإيمان بطلوع ليلة القدر . حكاية تذكر من قبيل التمني

ثم قالوا إن الحائط اقيم فوق فوهة بئر كانت تتسرب منها الجن من باطن الأرض إلى ظاهرها . فأقيم الحائط ووضع فيه مصحف وبخارى وأحجبة وقطع زجاج مكسور ليمنع تسرب الجان ولكن هذا القول كسابقه لم يعمر طويلا .

ثم شب جيل كان أقل خيالا من سابقيه راى في الحائط الصغير تجربة كان القصد منها بناء السور كله بالدبش والاسمنت وفشلت التجربة .
ولا يكف الناس أبدا عن ايجاد التعليل .

ومع هذا بقي السر الحقيقي لا يكاد يصدقه أحد ..

فالسوق أول الأمر لم تكن سوقا وإنما كانت قطعة ارض بور لا ينبت فيها زرع . رأى أهل القرى المجاورة أنها أقرب مكان يفدون إليه مثقلين بالغلة والبلح والجبن ويعودون وقد خفت احمالهم بالدمور والمرايا والسكاكين الخارجة لتوها من تحت يد الحداد . وكانت تلك الأرض جزءا من الأملاك الواسعة التي آلات لأحد أعيام الجهة التذي ينحدر من سلالة من الترك أو المماليك والله وحده أعلم .

ورأى المالك في قدوم الناس ومواشيهم إلى أرضه البور كسبا له وطريقة لإخصاب الأرض حتى يزرعها بعد حين . ولهذا سمح لهم بالقدوم بل كان يشجعهم على القدوم حين يمر عليهم وسط الزحمة راكبا فرسه موزعا ابتساماته الراضيات ..

ولما راى أن الارض قد استوت للزرع بما خلفته المواشي من بقايا ، أراد حرثها وحرثها ، ومع هذا قدم إليها الناس مثقلين وغادروها خفيفين ، وبططوا الحرث وأقاموا السوق ..

وطرد الناس وحرثها مرة أخرى .
وفي الأسبوع التالي أقيم السوق أيضا وبطط الحرث .
واشار عليه ناظره العجوز أن يستغل الأرض بطريقة أخرى فيترك الناس يجيئون ويذهبون على أن يأخذ ضريبة على المتسوقين ، وأخذ المالك بنصحه ، وفي الأسبوع التانلي انطلق محصلوه يترصدون القادمين ويجمعون الإتاوة ، ولكي يزيد الإيراد ويقلل المصاريف اقام حول الفضاء سورا من الخشب جعل له بابا على الطريق الزراعي وجعل على الباب محصلا واحـــــــــدا .

وهكذا وجدت سوق السبت وما لبثت أن عمرت وازدهرت واضيفت إلى بلادها بلاد واضيفت إليها سويقات للحمير والجمال واكتملت اصنافها حتى من البوظة والعرقسوس .

وكنت تعرف أن السبت يومها حين تجد الناس في الصباح الباكر يزحفون صوب السوق من كل اتجاه وتجد الطري قالمؤدية إليه قد قد حفلت بلابسي العمائم والجلاليب والذين بلا عمائم أو جلابيب وراكبي الحمير وساحبي الأبقار . وحاملي المقاطف وطالقي الجواميس والمتوكلين على الله .

وبم يكن على أهل القرى الغربية أكثر من أن يعبوا الطريق الزراعي ويدخلوا الباب ليصبحوا في السوق أما أهل القرى الشرقية فالمسألة بالنسبة لهم كانت أصعب فالمشايات التي تنحدر من قراهم كانت تلتقي عند الساقية القديمة في مشاية واحدة ضيقةتنتهي عند نقطة في السور الشرقي للسوق تقابل الباب في الجهة الغربية وكان عليهم لكي يدخلوا أن يلتفوا حلو السور كله وهذا تعب ومشقة فاختصروا الطريق وكسروا خشبة في السور وأصبح الأمر لا يكلفهم إلا المروق من بين الخشبتين ليصبحوا في قلب السوق .

وبمضي الوقت أصبحت المشاية الضيقة طريقا معترفا به من السوق وإليه . واصبحت الفجوة التي في السور بابا كاحسن ما يكون الباب .

وكان لصاحب الأرض سراية تطلع على السوق كلها مشربيات وشرفات وسلاملكيات واشياء من هذا القبيل والظاهر أنه كان واقفا في شرفته ذات يوم فراى طابورا لم يكن يعرف كيف يبدأ لكنه رآه ينتهي في السوق من خلال السور فجن جنونه وركب راسه . وركب كذلك حصانه وانطلق يرى الأمر وهناك راى الفتحة فشلضم وبرطم وامر بإصلاح الخشبة المكسورة في الحال .

ويوم السوق التالي وقف في الشرفة يشمت في الطابور الذي لا ريب سينكسر عند السور ولكن آلاف العفاريت ركبته حين رأى الطابور يواصل سيره المعتاد .

ولما أسرع يعاين وجد الخشبة الجديدة مكسورة ويقولون إنه جلد النجار الذي أصلحها وجلده مرة أخرى ليصلحها . بل وقف على راسه حتى أتمها وامتحن متانتها بنفسه وفي السبت التالي رجع فإذا الخشبة مكسورة .

واحمر وجه الرجل من الحنق حتى كاد يدمى وقطع شجرتين من أشجار السنط وكومها حتى سدت الفرجة ..

وما مر أسبوع حتى كانت الشجرتان كل في أقصا ناحية والطابور لا يزال لا بداية له لكنه ينتهي في السوق من خلال تلك الفجوة .

وكاد شريان من شرايين الرجل ينفجر وهذه المرة كلفه استعمال عقله ليلة كاملة وفي الصباح أحضر فرقة من الصعايدة بكريكاتهم وفؤوسهم وما انتهى الأسبوع حتى كانوا قد حفروا ترعة حول السور كالخندق واطلق فيها الماء .

ولم يتعب نفسه ويقف يوم السوق في الشرفة ولا بعده من أسواق فقد كانت متاكدا من انقطاع الرجل .

والذي حدث أن شجرتي السنط جيء بهما ووضعتا في الخندق وبقي ظاهرا منهما ما يكفي ليخطوا الإنسان عليه في أول سوق بعد الترعة ثم قلقلت قطع من الطين الجاف – نفس الطين الذي نتج عن حفر الترعة – وأسقط فوق جذعي الشجرتين ثم ما لبث الطين أن ردم الترعة واتصلت المشاية بالفجوة .

ويبدو أن الرجل كان يركب فرسه يتنزه ذات يوم فوجد المشابة واصلة إلى السور وظل يسب ويرطن أياما وظل كذلك اياما يكظم غيظه واصبحت المسألة مسألة كرامة وعند وتحد من الفلاحين العبط فاتقى من بين خفرائه ثلاثة طوالا عراضا وقال لهم : خراب بيوتكم إن مر احـــــد .

ويوم السوق تلكا الطابور لاول مرة وما لبث أن توقف فقد نشبت عند السور خناقة كبيرة وفي الضحى حُمل الطوال العراض إلى السراي ودمهم يسيل .

واستعداد الطابور بقية اليوم سيره وسرعته وطاب الخفرتء وعادوا يحرسون الثغرة ونشبت معارك أقل حدة وتلكأ الطابور مرار ثم كف عن تلكئه واستأنف سيره تحت وابل من حفن الجميز وخيارتين أو طور بلح

أو نفس دخان أو حتى عواف عليكو يا رجالة .

وذات مرة راى صاحب الأرض خفراءه جالسين يستظلون بشجرة الجميز وتأتيهم المنح من الذاهب إلى السوق والعائد منه فطرد الخفراء واحضر بنائين واحجارا وبنى ذلك الحائط العالي الذي أغلق الفجوة تماما وأغلق كذلك في نفسه كل فجوة يمكن أن يتسرب منها الشك في احتمال فشل الحائط .

ولم يكد سبت واحد يمضي حتى اكتشف الرجل مخبولا أم الخشبة التي بجوار السور تماما قد كسرت وان فجوة جديدة صنـــــعت .

وأقسم يومها أن يبيع السوق ..

ولم يتح له ان يبر بقسمه إذ استولت عليه شركة الأسواق بناء على مرسوم وامتياز طويل الأجل .

ومع أن الشركة قد أقامت بدل السور الخشب سورا من الحديد كلما بلي جددته ومع أنها لم تركب راسها كالصاحب القديم فتستأجر فتوات أو تقيم حائطا بل استعانت بالمركز فجعل لها كل سبت كوكبة من الخيالة تجوب السور رائحة غادية .

مع هذا إلا انك اذا وقفت في الصباح الباكر من أي سبت فسوف تجد المشاية تحفل بالطابور الذي لا تعرف كيف يبدأ ولكنك تراه ينتهي في السوق من خلال السور .

ودائـــــما هناك خشبة مكسورة.

العتب على النظر

من كام يوم جاءني حسن
قل لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
هو فيه للحمير نضارات
ضحكت
فلابد حسن يريدني أضحك
لأ. جد
لا بد يريدني لا أضحك
سكت وإليه نظرت
ما تقول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
مش للحمير نضارات زي البني آدمين
كل كذا عام
لك يا حسن سؤال
لا يا حسن الحمير مالهاش نضارات
طب والعمل
وحماري لازم له نضارة
ايش عرفك
بقي يضبش
ويدخل علي مراتي
يفتكرها الزكيبة
هي تخينة زي الزكيبة
ان جيت للحق
صحيح تخينة
إنما مش زكيبة
يمكن بيغلط وكل حمار له غلطة
بس ده غلطه كتر
وبدأ يحرن
ويتوه عن الدار
ومرات يخبط راسه في الحيط
عشان حمار يا حسن

لا عشان بقت عينيه شيش بيش يا دكتور
وديته لحد يشوفه
شافه البيطار
وقال لك عايز نضارة
قال بيعه.. دا شرك. بيعه
بيعه
ما يجبش تمنه
والحمير الجديدة سوقها نار
والحل
عايز له نضارة يا بيه
أنت اتهبلت
نضارة ايه لحمار يا حمار
قول اللي تقوله
إنما أنا في عرضك
غيتني
إزاي
اتوسط لي في نضارة
والنضارة بوسايط
كله بوسايط النهاردة
إلا النضارة
مش عايزة واسطة
أمال عايزة ايه
عايزة كشف
والكشف فين
عند بتاع النضارات
يبقي خلاص. فرجت
أنا وقعت م السما يا بيه
وأنت استلقيتني
ست كيلات فول
واعمل له نضارة
أني حالي واقف
ومن يوم ما وغوش
أني سنقرت

***

وقعدت اضحك
افتكر حمار حسن
لبس نضارة
أموت علي نفسي م الضحك
لدرجة قلت لابد
وبكل طريقة يا حسن
أعمل لحمارك نضارة

***

لعم ناجي خدت بعضي ورحت
وعملنا اجتماع
ومن حيث المبدأ وافق
وفضل التنفيذ
والتنفيذ عايز كشف
والكشف عايز علامات
وأنهي حمار ده
اللي
ح يعرف فتحة العلامة منين
منين حا تعرف الفتحة يا حمار؟

***

وانضم حسن أبو علي لينا
وعلي أعلي مستوي قعدنا نضبش
وجانا الحل من حسن

حل مالوش مثيل
يا ابن الايه يا حسن
أما حتة حل

***

سهم حسن وقال:
يا بيه ويا عم ناجي
الحل عند الحمار
إزاي يا حسن إزاي
فتح حسن بقه وبص لكمه الشمال
وانكسف
هو بينكسف كده
وقال:
الحل حمارة الصاوي جاري
كان ساعة ما بيشوفها
ينهق عليها
ولما نظره ضعف
ما بقاش ينهق
إلا لما يقرب عليها قوي
وكل يوم والتاني
ماكانش يزر ودانه
إلا لما يدوبك
بوزه ينشه ديلها

***

وبعد مفاوضات
والصاوي خايف علي حمارته
ولولا إن عم ناجي

كبرت في دماغه
ماكانش حصل
وتم وجري الترتيب
نوقف حمارة الصاوي علي بعد قصبة
وحمار حسن علي باب الدكان
وأنا أمسك شنبر الكشف
وناجي يغير العدسات
بحيث لما يحط العدسة المظبوطة
نعرف أنها هي من نهيق الحمار
مادام كل ما كان يشوفها ينهق
فضروري لما يشوفها ح ينهق
ونعرف العدسة المظبوطة
وعدسات عينينا تنفع لعينين الحمار
تنفع ونص
قالها عم ناجي وفتح الصندوق
وصبيه طرد العيال ووقف زنهار
وحددنا مكان الحمارة
ومكان الحمار
ودورنا الحمارة
وخلينا راس الحمار
علي خط مستقيم
يصل بين نقطتين
ديل الحمارة
ومناخير الحمار
وثبتنا الشنبر بدوبارة وحوالين الودان
ربطناه واشتغل يا عم ناجي
وثبت الهدف يا عم صاوي
وانهج يا حسن وكأنك حاضر
أول عملة في التاريخ
يعملها إنسي في حمار

***

زيادة في الاحتياط ثبت أنا الشنبر
وزيادة في الاحتياط مات حسن علي صندوق العدسات
وبسمل عم ناجي وكلنا وياه
وحط أول عدسة
واستعدل بوز الحمار
نفخ الحمار وعطس وهز كده، وكده راسه
وكأن شيء ما كان
ثاني عدسة
خاف الحمار واتاخد وغمض عينيه
وبدأ يرفص
سهل علينا ناجي وقال: أصلها عدسة بتكبر
ولازم شاف الحمارة بغل قدامه
الثالثة مسكنا لها جامد
ورمش الحمار عشر رمشات وابتدا يبحلق
وزر ودانه
وبان عليه علامات جد وخطورة
ولحقه عم ناجي بعدسة علي العين الثانية
حمحم الحمار ونفخ صدره
وزفر بصدر محروق
وراح مطلقها
تنهيقة مفاجئة خدتنا علي خوانة
وكأن قنبلة انفجرت
تنهيقة وأتبعها بالثانية
ورفع للسما راسه
وتشعبطنا نمسك العدة والشنبر
وغارة نهيق هاجت
ومعاها ضحكنا هاص
ينهق ونضحك
وحسن م الفرحة طاير
وحمارة الصاوي للنهيق
نخت ووسعت فتحة البرجل
وابتدا يفلفص
وحسن يصرخ: أهو شاف
ايش عرفك

شاور
شيء خرافي غريب يجعلك
تؤمن أن الجسد حيوان ساعة اللزوم يظهر
لا عقل له ولا فيه ولا أدب يعرف
حيوان حماري أسود غليظ بشفاتير
زي مارد كان في الجسم متخبي
ثانية ادلدل من القمقم
مارد طويل تخين يجعلك تتمني تبقي حمار مثله
خرجته من جحره زي الكمين الحي يستنفر
شيء لابد معه تتأمل
وتتكسف له
كأنك الغلطان
وارتبكنا احنا الكل خايفين نبص
ليكون عيب
ومش قادرين نشيل عينينا
لأن البصر من مكمنه بينشد
ومن غير أمر ولا خطة، الظاهرة
عمالة وشغالة والحمار ينهق
والوحيد الباصص بعيون الفرح والفخر
حسن أبو علي صاحب الحمار
يعمر بيتك يا دكتور
تسلم ايدك يا عم ناجي
أنا طالب القرب يا صاوي
وحمارتك أهه، موافقة
والجمهور علي الجوانب انتابته حالة
وكأنه بريمة اندكت في برقع الحيا للآخر
وحمحمة ورا حمحمة سخن الحمار والزمان
دا جنن الجدعان
وهب، قطعت رجليه القيود
واندفع خطوة
خطوة واحدة بس لأن العدسات نطت
والشنبر طار
وهديت تماما وفي الحال وحين كف البصر حركة
الحيوان

وعاد أليف مستأنس
ارتخت ودناه
ودلدل بوزه
وصرخ حسن
في عرضك يا عم ناجي
الحقني يا دكتور
الفرحة ما تمت
والدنيا بقت هس
لكن حماسنا كان لسه
ومرة ثانية ثبتنا الشنبر
وجاب ناجي عدسات اضبط
والنهيق عاد
وفي السما لعلع
وما عرفناش اللي حصل ايه
في نطة جامدة كان عند الحمارة
ودماغه زقت عمك الصاوي
وقدام عينينا ظاهرة كونية
وعفاريت الجسد في عز الضهر اتجننت
ولا عاد حمارة من حمار ولا ذكر من أنثي
الحياة الحمارة بغشوميتها وغبائها أصبحت أرقي
والقانون اللي عمل أنثي وذكر أصبح مرعبا
وهو يطلق عقال طاقة الالتحام
ولا الرعب النووي له الجميع أنشل
الطبيعة بصراحة وبلا خجل وعيني عينك
تتكلم بأعلي صوت، تصرخ، تجأر
تضع في أجسادنا الزلازل، وداخلنا تفجر البراكين
لحظة اختلال كون
والاّ انتظامه
منتهي عقله
والا منتهي جنانه
لحظة لا قيمة فيها الا قيمتك كذكر الطبيعة أو
كأنثاها
ولتذهب العقول والضوابط للأطفال والعاجزين
يلعبون ويعزون بها الأنفس

لحظة الفيض
الاجساد ثائرة وفائرة تدفق رحيقها
بكل بدائية تفجرات الشمس
ومد القمر
ووحشية الإعصار

***

واختفي الكل ولم يعد سوي ثلاثة
حمار حسن وحمارة الصاوي وقامة قصيرة تشب
وتريد
مطاولة الموقف واللحظة، قامة أبو علي وقد فقد،
للحظة، وعيه الكامل وملامحه وقد أصبحت تنطق
بالسرياني وتزمجر بأزيز يرعب حسن ويرعبنا

***

ولا تتصور ظاهرة مهولة كهذه
تنتهي كما انتهت، فجأة، ويحل السكون عاتيا
شاملا وكأنه العودة إلي القبر.

***

ودعونا من خناقة حسن والصاوي
فالصاوي أنشب أظافره في حسن بدعوي أن الاتفاق كان علي الكشف من بعيد لبعيد فقط، ولم يكن الوثب أبدا داخلا في اعتباره. وحسن يرد بغرور أن علي الصاوي أن يحمد الله فحمارته من فرط قبحها بائرة السوق، وفي جوفها الآن نطفة حمار حصاوي منياوي لا يقل أجرها عن جنيه.

وكأنهما بالاشتباك الذي دار والعمامات التي تهدلت والصراخ والجئير يعيدون للكون نشازه بعد انسجامه، وضجته التي لا معني لها بعد فحيح الضجيج الخالق.

أما حسن فقد أصبح قتيل النضارة، تلك النضارة بالذات، فلم يعد مهما لديه أن يري بها حماره الطريق، الأهم، الكسب كان يأتي بنضارة الوثب تلك، الوثبة بجنيه، سعر محدد، منها خمسة وعشرون قرشا بدل نظر أو بالأصح بدل نضارة.

أما عم ناجي فقد تطوع بتصنيع شنبر خاص لحمار حسن، بل واحضر له عدسات أكبر، وأصبح حمار حسن ونظارته من معالم القرية، وبالذات نقطة جذب السياحة الداخلية لأهالي القري المجاورة.

وعاث الحمار في أرض القرية بنظارته فسادا، فلم يترك أنثي علي حالها، بل أحيانا كان يناوش حتي ذكور الحمير.

وأشاعوا أن حسن ارسل حماره لكتاب الشيخ حسنين، وأنه تعلم القراءة بسهولة تامة اذ علي رأي عم ناجي: أنا مركب له نضارة تقرا لوحدها.

بل وفعلا، وقد رأيت هذا بنفسي، كان الحمار كثيرا ما يري وهو يحدق في مانشتات الصحف الحمراء، وان بعضها كان يعجبه فيلعقه بلسانه والآخر كان لا يعجبه فيمضغ الصحيفة وعنوانها ثم لا يلبث ان يبصقها وينهق بشدة علامة الضيق الشديد.

وربما لهذا صمم حسن علي منعه من الاطلاع علي أي جريدة أو مجلة فقد لاحظ أن القراءة بنضارة الوثب تقلل كثيرا من قدرة دابته، ويخسر بعدها بضعة جنيهات من جراء 'سدة النفس' التي تحدث لحماره، عقب كل جريدة يقرأها ويمضغها ويبصقها، وجاهلا سيصير الحمار، وماذا يهم: الأدب أو قلته فضلوه علي العلم.

***

ومن يومين جاءني حسن
وسألته عن الحال، قال: لبن
وعن النضارة، قال: حديد
وعن الحمار، قال: عقبال أملتك
ثم ابتسم، مخفضا فتحة فمه الي أسفل، راشقا
عينه في كمه الأيسر، طريقته في الخجل، ثم
بتنهيدة من أعماقه قال:
ألا قول لي يا دكتور
أقول لك يا حسن
مادام نضارات البني آدمين بتنفع الحمير، يا تري
نضارات الحمير تنفع البني آدمين
ليه يا حسن

سألت

قال: أصلي عايز أتوكل علي الله وأعمل نضارة

إليه نظرت

ورفضت أن أضحك

فماذا بالله عليكم يضحك في السؤال

بالله عليكم، ماذا في هذا رغم ذاك، يضحك؟

لحظة قمر

فجأة، رأيت القمر ..

وليست هناك خدعة ما في التعبير،فصحيح أن الإنسان أبدا لا يري القمر فجأة، فالقمر لا يظهر فجأة، والشمس لاتشرقفجأة، إذ المفاجأة دائما في العمل غير المنتظر، وشروق القمر وغياب الشمس أعمال لامفاجأة فيها ولا جديد. ولكنك بالتأكيد ستحس بصدمتي وأنا أري القمر فجأة في شريحة منشرائح القاهرة، شريحة تسمح لك برؤية السماء، رأيت القمر عجيبا جدا .

الشريحةالسماوية التي تبدي منها. كانت مسافة بين عمارتين عاليتين من عمائر القاهرة،عاليتان إلي درجة تكاد تحجب عنك رؤية السماء كلها. ولولا المسافة الكائنة بينهما ماسمحت لهذه الفرجة السماوية أن تظهر. وقد كان حريا بظهورها ألا يثير أدني دهشة أوابتئاس لولا أن تلك الشريحة السماوية كانت تحوي، في هذا الوقت بالذات القمر، القمرفي محاقه الأخير، القمر حين يبدو الجزء المضيء منه مخنوقا بعض الشيء. من لون البدريتناول تدريجيا فاقدا لمعة فضيته، ثم بياضه مكتسبا بعض الصفرة، بعض العتمة، حينيكاد نوره يصبح وكأنه نور قادم من عمود نور البلدية، أو هو بالضبط كما بدا لي منخلال فرجة السماء هذه القائمة بين عمارتين، شققهما العليا مفجرة الأضواء والضجيج،بدا لي وكأنه النور القادم من شقة ثالثة مفروشة ومؤجرة للسياح ومن الباطن، حتي لوكان هذا الباطن علي تلك الدرجة الشاهقة من العلو، فالمهم أن نور القمر المخنوقاختلط بأنوار الكهرباء الباذلة جهدها كي تلعلع وتبرق ومع ذلك فهي بالكاد تصل إليمستوي نور القمر المخنوق هذا .

فجأة، رأيت القمر .

ويبدو أيضا أن المفاجأةكانت كاملة وكان من المستغرب تماما في ظروف القاهرة تلك، ظروف الخروج من المعركةوالاستعداد الكامل المطلق لأي معركة مقبلة، أن يكون هناك قمر .

ربما نحن نسيناهتماما .نسينا الكون الأكبر المحيط بنا، ضعنا تماما في اختناقاتنا اليومية الصغيرةالمستمرة المتكثرة التي نغرق فيها وتغرقنا، ومع هذا فمفروض ونحن غرقي هكذا أن نفكرفي انقاذ أنفسنا بل ونقوم

بهذا الانقاذ فعلا، ويخيل لنا أن كل شيء قد انتهي إليلاشيء مرة، ومرة أخري أدهي يخيل إلينا كما لو كان أي شيء قد استحال إلي شيء .ومابين اللاشيء وكل شيء رحنا نرقص. رقصا لاضابط له ولا نغم، نحن فيه علي وجه الدقة كرة) بنج بونج) مضروبة مضروبة، لكي تقتحم أرض الخصم، لكي تدافع مضروبة، من اليمين التينزاولها بمنتهي عدم الدهشة وبمنتهي الجدية والخطورة، رقصة التفتت والتحلل إلياللاشيئية لتصبح الكل شيئية.. أنستنا هذه الرقصة المحمومة، ليس فقط أننا نرقص أوأننا أحياء، ولكن يبدو وكأنها أنستنا أيضا أننا جزء من كون هائل الضخامة كبير،عوالم أخري، شموس وأفلاك ومجرات، حركة تاريخ ضاربة إلي أسحق بعد من الماضي وواضحأيضا إلي أسحق بعد في المستقبل ..

أجل.. نسينا هذا كله. كل مراكز عقولنا محملةفوق طاقتها بأكوام من الأرقام والحسابات والديون والمطالب والاحتمالات وخرابالبيوتات، المركز الواحد أمامه طابور أفكار برمته ولا طابور الجمعية.

نسيناالقمر ..

وفجأة، رأيت القمر .

مخنوقا لا يهم، محمر الضوء كالحه لا يهم، شقةمفروشة بتليفون وحمامين وأنوار والعة مولعة ومجهزة إلي حد الصاجات لإحياء ليالي ألفليلة بعشرات من الشهرزادات المنتظرات، فقط، تليفون، وإذا الكل علي واحدة ونص انضبط،مع كل واحد، يتخلخل تماما ويتفكك مع كل نص في ومضه يعود إلي الانضباط. شقة مفروشةباهرة الأضواء بين عمارتين لزوم السادة السياح، ما عليك فقط إلا أن تشير، مجردتشير، أو تفكر، مجرد تفكر، وإذا بجميع ما تحلم به يتحقق حتي لو الشقة في القمر، ولوالقمر بين عمارتين تتلألأ شققهما بأنوار .

فجأة، رأيت القمر ..

إذن فأنتالقمر. تراك أين كنت أيها العربيد. ماذا ضيعك منا أو بالأصح ماذا ضيعنا منك؟ أخيراهللت، وظهرت، ورأيناك؟ !

صحيح لم تكن مفاجأة، ولكنها كانت في حد ذاتها حدثا .

لا أعرف ماذا حدث لي بالضبط حين رأيت ذلك المخنوق بالوهج القمري، ولكن الشيءالمؤكد هو أنني أحسست بارتباح طاغ .

القيامة إذن لم تكن قد قامت .

والطريقالذي قطعناه طويل هذا صحيح .

متعبين، مثخنين بالجراح والأنواء، نحن .

ولكن ...

ها هو القمر .

ها هو وجهه يذكرك بإنسانيتك، بأنك أنت مما كنت، ومهما كانتأوضاعك فأنت هو الإنسان، أنت العظيم وسط هذا الكون الهائل الفراغ والظلام .

ذلكأن هذا النظام نفسه يؤكد أنك سيد هذا الكون، أنك الوحيد بين مكوناته القادر أنتتحرك بإرادتك المستقلة وبحريتك في أي اتجاه تختاره، إنك السيد، وكل ما تفعله عظمةالكون كلما عنّ لها أن تؤكد نفسها فإنها في نفس الوقت تؤكد عظمتك، أنت عظمة السيد .

فجأة، رأيت القمر ..

لا أعرف لماذا كانت بعض الديانات القبلية في أمريكاالجنوبية وأفريقيا تخصص أياما محددة من العام تجتمع فيها القبيلة كلها ومن كافةالأنحاء، في مكان محدد عند هضبة جبلية، هناك حيث يعسكر أهل القبيلة، ويقضون الوقتفي تأمل صامت للشمس وهي تشرق وتميل ثم تغيب، والقمر وهو يعتلي قبة السماء ويتغيرشكله وطبيعة نوره لا أعرف، ولكن الدارسين لهذه العبادات والقبائل يؤكدون علي أنالغرض من هذا كان عمل نوع من الاتصال بين الإنسان والكون، بحيث يبقي للإنسان ذلكالاتصال الكوني الروحي الذي يزوده بزاد يكفيه حتي حلول العام القادم .

لا أحديعرف إذن ماذا يعنيه هذا الاتصال بين الإنسان والكون أو بالضبط ماذا يحدث للنفسالبشرية إذا أجبرت علي الابتعاد عن الظواهر الكونية أو إذا عاشت واختلطت بتلكالظواهر. لا أحد بالضبط يعرف ماذا يحدث للإنسان ولكن الذي لا شك فيه أن الإنسان) الكوني) أقوي بكثير من الإنسان بلا بعد كوني، فالإنسان ذو البعد الكوني إنسان أقربإلي حقيقته الإنسانية وطبعه البشري، أقرب إلي فطرته وأصالته، أقرب إلي تفرده وتسيدهمن ذلك الذي غشي عليه فلم يعد يري أمسه من غده، أو ليله من نهاره .

فجأة، رأيتالقمر ..

رفرفت في صدري أجنحة عصفور زقزق في قلبي كالزغرودة وهفهف بجناحيهمرحبا، وكأن الأمر عيد يهش له .

وبدا كما لو كنت أستعيد حياتي كلها في شريط سريعأمام القمر أو بالضبط أمام لحظة القمر .

لا أعرف، ولكن، لأمر ما، كل شيء يأخذحجمه الطبيعي، بل بدأت أنا نفسي آخذ عند نفسي حجمها الطبيعي، أو ذلك الذي أبدو فيهأكبر من كل مشاكلي. تلك الصورة التقليدية التي يبدو فيها الإنسان، ومهما كان التحديالقابع أمامه، منتصرا، أو علي وجهه علامات الانتصار الأكيد..

فجأة، رأيت القمر ..

في فجوة سماوية بين عمارتين.. شقة مفروشة.. كون هائل فارغ ومظلم ومنظم.. عصفوريزقزق في قلبي طربا .

لحظة ..

وفجأة أيضا، ضاع القمر ..

سدت السماء أدوارالعمارات العالية .

أصبح لا معني أن تنظر للسماء إذ لا سماء هناك .

عليك، لكيتخطو، فقط لكي تخطو، أن تنظر إلي الأرض .

وإلي الأرض تظل تنظر، حتي لاتسقط، تنظرحتي لاتسقط فما أكثر الحفر في شوارعنا هذه الأيام .

فجأة، رأيت القمر ..

ولحظة واحدة عشتها معه .

وفجأة، ضاع القمر بين عمارتين، وضاع بصري بحثا عنموطيء قدم .

ولكن قلبي لا يزال يرفرف بالسعادة، إذ يكفي أني، بعيني، رأيت القمرالذي لا أراه.

الــمــرتـــبـــة الــمــقـــعــرة

في ليلة 'الدخلة' و'المرتبة' جديدة وعالية ومنفوشة، رقد فوقها بجسده الفارع الضخم، واستراح إلي نعومتها وفخامتها، وقال لزوجته التي كانت واقفة إذ ذاك بجوار النافذة .

انظري.. هل تغيرت الدنيا؟

ونظرت الزوجة من النافذة ثم قالت :

لا.. لم تتغير .

فلأنم يوما إذن .

ونام أسبوعا، وحين صحا كان جسده قد غور قليلا في المرتبة .

فرمق زوجته وقال :

انظري.. هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت :

لا.. لم تتغير .

فلأنم أسبوعا إذن .

ونام عاما، وحين صحا كانت الحفرة التي حفرها جسده في المرتبة قد عمقت أكثر، فقال لزوجته :

انظري.. هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت :

لا.. لم تتغير .

فلأنم شهرا إذن .

ونام خمس سنوات، وحين صحا كان جسده قد غور في المرتبة أكثر، وقال كالعادة لزوجته :

انظري.. هل تغيرت الدنيا؟

فنظرت الزوجة من النافذة ثم قالت :

لا.. لم تتغير .

فلأنم عاما إذن .

ونام عشرة أعوام، كانت المرتبة قد صنعت لجسده أخدودا عميقا، وكان قد مات وسحبوا الملاءة فوقه فاستوي سطحها بلا أي انبعاج، وحملوه بالمرتبة التي تحولت إلي لحد وألقوه من النافذة إلي أرض الشارع الصلبة .

حينذاك وبعد أن شاهدت سقوط المرتبة اللحد حتي مستقرها الأخير، نظرت الزوجة من النافذة وأدارت بصرها في الفضاء وقالت :يا إلهي! لقد تغيرت الدينا.

أرخـــــــص لـــيـــــــــــــالي
من مجموعة أرخص ليالي1954

بعد صلاة العشاء كانت خراطيم من الشتائم تتدفق بغزارة من فمعبدالكريم فتصيب آباء القرية وأمهاتها، وتأخذ في طريقها الطنطاويوأجداده.

والحكاية أن عبدالكريم ما كاد يخطف الأربع ركعات حتي تسلل من الجامعومضي في الزقاق الضيق وقد لف يده وراء ظهره وجعلها تطبق علي شقيقتها في ضيق وتبرم،وأحني صدره في تزمت شديد وكأن أكتافه تنوء بحمل (البشت) الثقيل الذي غزله بيده منصوف النعجة.

ولم يكتف بهذا بل طوي رقبته في عناد وراح يشمشم بأنفه المقوس الطويلالذي كله حفر سوداء صغيرة، ويزوم، وقد أطبق فمه فانكمش جلد وجهه النحاسي الأصفر،ووازت أطراف شاربه قمم حواجبه التي كانت ماتزال مبللة بماء الوضوء.

والذي بلبلكيانه، أنه ما ان دخل إلي الزقاق حتي ضاعت منه ساقاه الغليظتان المنفوختان، ولم يعديعرف موضع قدميه الكبيرتين المفلطحتين اللتين تشقق أسفلهما حتي يكاد الشق يبلعالمسمار فلا يبين له رأس.

ارتبك الرجل رغم القسوة التي ضم بها نفسه لان الزقاقكان يمتليء بصغار كالفتافيت يلعبون ويصرخون، ويتسربون بين رجليه، ويسرح واحد منبعيد وينطحه، ويشد آخر (البشت) من ورائه، ويصيبه شقي بصفيحة في اصبع قدمه الكبيرةالنافرة عن بقية أصابعه.

ولم يستطع إزاء هذا كله إلا أن يسلط عليهم لسانه، فيخربالبيوت فوق رؤوس آبائهم وأجدادهم، ويلعن الداية التي شدت رجل الواحد منهم، والبذرةالحرام التي أنبتته.

ويرتعش عبدالكريم بالحنق وهو يسب ويمخض ويبصق علي البلدالخائب الذي أصبح كله صغار في صغار. ويتساءل، و(بشته) يهتز، عن معمل التفريخ الذييأتي منه من هم أكثر من شعر رأسه. ويزدرد غيظه وهو يطمئن نفسه أن الغد كفيل بهم،وأن الجوع لامحالة قاتلهم، و(الكوريره) سرعان ما تجيء فتطيح بنصفهم.

وتشهدعبدالكريم وهو يشعر براحة حقيقية حين خلف النحل وراءه في الزقاق وأصبح يشرف عليالواسعة التي تحيط بالبركة في وسط البلد.

وانبسط الظلام الكثير امامه حيث تعششالبيوت المنخفضة الداكنة، وترقد أمامها أكوام السباخ التي طال عليها الإهمال،ولاشيء بقي يدل علي الأحياء المكدسين تحت السقوف إلا مصابيح متناثرة في الدائرةالمظلمة الواسعة وكأنها عيون جنيات رابضات يقدح منها الشرر!، ويأتي نورها الأحمرالداكن متبخترا من بعيد ليغرق في سواد البركة.

وتشتت بصر عبدالكريم في الظلامالفاضي، ودار برأسه هنا وهناك، ورائحة الماء الصديء في المستنقع تتلوي مع تقوسخياشيمه. وفي الحال شعر بالضيق يكتم فتات أنفه، فشدد من قبضة يده، وزاد انحناءه،وكاد

يرمي (بالبشت) علي حافة البركة.
وكان ما ضايقه وكتم أنفاسه شخير الأرانبأهل بلده، وهو يمتد مع انتشار الظلام، ولحظتها كان ما يلهلب سخطه أكثر هو طنطاويالخفير، وكوب الشاي (الزردة) التي عزم عليه بها في حبكة المغرب، والتي لولا دناوته،وجريان ريقه عليها، ما ذاقها.
وتمشي عبدالكريم في الواسعة وأذنه لاتسمع حسا ولاحركة، ولا حتي صيحة فرخة، وكأنه وسط جبانة وليس في رحاب بلدة فيها ما فيها من خلقالله.
وحين بلغ منتصف الواسعة توقف. وكانت لوقفته حكمة، فهو إذا أطاع ساقيهومشي، أصبح بعد خطوات قليلة في قلب بيته. وإذا أغلق دونه باب الدار، كان عليه أنيخمد أنفاسه وينام. وهذه اللحظة لم تكن في عينيه قمحة واحدة من النوم، بل كان مخهأروق من ماء) الطرمبة)، وأصفي من العسل الأبيض، ولا يهمه السهر ولو لهلالرمضان.
وكل هذا بسبب دناوته، وسواد الشاي في الكوب، وأفعوانية طنطاوي وبسمتهالزرقاء، ودعوته التي لم يفكر في رفضها..
ليس هناك نوم؟.. طيب.
ورجال البلدةالخناشير قد انكفأوا يغطون من زمان، وتركوا الليل لصغارهم الملاعين! فماذا يفعلعبدالكريم؟ يسهر؟ وأين يسهر؟..
صحيح؟!.. أين يسهر؟..
هل يلعب (الاستغماية (مع الأولاد؟..
أو تزفه البنات وهن يقلن: يابوالريش.. إنشا الله تعيش؟
صحيح ..أين يسهر وهو أنظف من الصيني بعد غسيله، وليس معه قرش صاغ واحد حتي يذهب إلي (غرزة (أبوالإسعاد ويطلب القهوة علي البيشة، ويتبعها بكرسي الدخان، ويجلس ما شاء بعد ذلكعلي ريحة القهوة والكرسي، يراقب حريفة (الكوتشينة) من صبيان المحامين، ويستمع إليما لايفهمه في الراديو، ويضحك ملء قلبه مع السباعي، ويلكز أبوخليل وهو يقهقه، ثمينتقل إلي مجلس المعلم عمارة مع تجار البهائم، وقد يشارك في الحديث عن سوقها التيركدت ونامت..
ليس معه قرش!.. جازاك الله ياطنطاوي..!
وهو لايستطيع أن يخطفرجله إلي الشيخ عبدالمجيد، حيث يجده متربعا والمدفأة أمامه، والكنكة النحاسية تغليوتوشوش علي مهل، والشيحي جالس بجواره، يقص بكل ما في صوته من رنين، ما حدث فياللياليالتي شاب لها شعره، والأيام التي انقضت وأخذت معها بصاغته من عقول الناسالقدامي الفارغة الطيبة، وجعلته يتوب عن النصب والسرقة وقلع الزرع علي أيديالنماردة من سكان هذا الجيل.
لايستطيع أن يتنحنح ويطرق باب الشيخ عبدالمجيدلأنه، أول الأمس فقط، دفع الرجل من فوق مدار الساقية فأوقعه في الحوض، وأضحك عليهالشارد والوارد، لما دب الخلاف بينهما علي مصاريف إصلاح الساقية. ومن ساعتها ولسانالشيخ لايلافظ لسانه.
كان الشيطان ساعتها شاطرا.. ولكن طنطاوي بدعوته أشطر ..الله يخرب بيتك ياطنطاوي..
وماذا عليه لو سحب عصاته (المشمش) ذات الكعب الحديدومر علي سمعان، وانطلقا إلي عزبة البلابسة، فهناك سامر، وليلة حنة، وغوازي، وشخلعة،وعود، وهات إيدك..

وإنما.. من أين ياعبدالكرم (النقطة)؟ ثم.. المساء قد دخلويجوز أن سمعان ذهب يصالح امرأته من خالها والطريق خائنة، والدنياكحل..

ياناس!.. لماذا هو الخائب الساهر وحده؟ وطنطاوي لاشك قد استنظف مصطبة رقدعليها في (دركه)، وراح في النوم.. نامت عليه البعيد أثقل حائط.

وماذا يحدث لوعاد إلي بيته هكذا كالناس الطيبين، ولكز امرأته فأيقظها، وجعلها تنير المصباح،وتمسح زجاجته، وتشعل الموقد، وتسخن له رغيفا وتحضر الفلفل الباقي من الغداء، وحبذالو كان قد بقي شيء من الفطيرة التي غمزتها بها أمها في الصباح، وآه لوصنعت له بعدهاكوزا من الحلبة، وجلس كسلطان زمانه يرقع الثلاثة مقاطف التي بليت مقاعدها ويصنع لهاآذانا وقد تملصت آذانها؟..

ماذا يحدث بالله إذا كان هذا؟..

هل تنتقل المحطةمن مكانها؟..!

هل يعمل العمدة ليلة لوجه الله؟..

وهل تنطبق السماء علي جرنالقمح؟..

أبدا.. لن يحدث شيء من هذا..

ولكنه أعرف الناس بامرأته، وأعرف منشمهورش برقدتها كزكيبة الذرة المفروطة وقد تبعثر حولها الصغار الستة كالكلابالهافتة، ولن تصحو حتي لو نفخ إسرافيل في نفيره، وإذا تفتحت ليلة القدر وقامت

فماذاتفعل؟..

أهو يحاول الضحك علي نفسه؟..

وهل الذي يزمر يغطي ذقنه؟..

المصباحبالعربي ليس فيه (جاز) إلا ما يملأ نصفه، والمرأة في حاجة إليه كله لتعجن وتخبز طولالليلة الآتية إذا عاش أحد. ثم الأولاد لاريب قد جاءوا ساعة المغرب، وأكلوا الفلفلوبآخر رغيف في (المشنة.(

وهل تبقي فطيرة الصبح لتنتظر سهرته؟.. وعليه أن يطمئننفسه، فلك الحمد، ليس في داره حلبة ولاسكر، ولايحزنون..

ولن يستطيع طول عمره أنيحظي بكوب مثل التي لحسها لحسا عند طنطاوي..

الله يجحم روحك ياطنطاوي يابنزبيدة..!

* * *

ولو أن أحدا عنّ له أن يقضي حاجته في الواسعة، رأيعبدالكريم في وقفته، مزروعا كزوال المقاتة أمام وجه البركة الداكن، لظن في التو، أنالرجل مسه شيطان أو لبسته شيخة!

وعبدالكريم معذور، فالحيرة التي كان فيها أوسعمنه، والمسألة أنه رجل علي نياته، لايقرأ الليل ولايكتبه، والجيب خال، والليلةشتاء، والشاي يكوي رأسه، وجهلة السهر من أمثاله قد غيبهم النوم من سنة مضت في سابعأرض.

طالت من أجل ذلك حيرة الرجل، وطال وقوفه، وأخيرا فعلها وقر قراره.

وقطعالباقي من الواسعة في استسلام وقد رأي أن يقضي ليلته كما اعتاد قضاء البارد منلياليه..

وأخيرا استقر في وسط داره، وقد أغلق الباب بالضبة وراءه .وتخطي أولادهوهو يزحف في الظلام علي قبوة الفرن حيث يتناثرون. ومصمص بشفتيه وهو يئن منهم ومنالظلام، ويعتب بينه وبين نفسه علي الذي

رزقه بستة بطون تأكل الطوب.
وكان يعرفطريقه، فطالما علمته ليالي البرد الطريق. وعثر آخر الأمر علي امرأته. ولم يزغدها،وإنما أخذ يطقطق لها أصابع يديها، ويدعك قدميها اللتين عليهما التراب بالقنطارويزغزغها في خشونة بعثت اليقظة المقشعرة في جسدها.
وصحت المرأة علي آخر لعنةأصابت طنطاوي في ليلته.
وسألته في غير لهفة وفمها يملؤه التثاؤب عما جناه الرجلحتي يسبه في عز الليل.
فقال وهو ينضو ثيابه، ويستعد لما سيكون:
هه.. اللهيخرب بيت اللي كان السبب..
* * *

بعد شهور كانت النساء كالعادة يبشرنه بولد جديد، وكان هويعزي نفسه علي السابع الذي جاء في آخر الزمان، والذي لن يملأ طوب الأرض بطنه هوالآخر..
وبعد شهور وسنوات كان عبدالكريم لايزال يتعثر في جيش النمل من الصغارالذين يزحمون طريقه في ذهابه وأوبته وكان لايزال يتساءل كل ليلة أيضا، ويداه خلفظهره، وأنفه يشمشم حوله، عن الفتحة التي في الأرض أو السماء، والتي منها يجيئون..!

بيت من لحم

مجموعة (بيت من لحم) ط1 1971

الخاتم بجوار المصباح، الصمت، الصمت يحل فتعمى الآذان، في الصمت تتسلل الأصبع، يضع الخاتم.
في صمت أيضًا يطفأ المصباح، والظلام يعم في الظلام أيضًا تعمى العيون، الأرملة وبناتها الثلاث، والبيت حجرة والبداية صمت.
الأرملة طويلة بيضاء ممشوقة، في الخامسة والثلاثين، بناتها أيضًا طويلات فائرات، لا يخلعن الثوب الكاسي الأسود بحداد أو بغير حداد، صغراهن في السادسة عشرة وكبراهن في العشرين، قبيحات ورثن جسد الأب الأسمر المليء بالكتل غير المتناسقة والفجوات، وبالكاد أخذن من الأم العود.
الحجرة، رغم ضيقها تسعهن في النهار، رغم فقرها الشديد مرتبة أنيقة، يشيع فيها جو البيت وتحفل بلمسات الإناث الأربع، في الليل تتناثر أجسادهن كأكوام كبيرة من لحم دافئ حي، بعضها فوق الفراش، وبعضها حوله، تتصاعد منها الأنفاس حارة مؤرقة، أحيانًا عميقة الشهيق.
الصمت خيم منذ مات الرجل، والرجل مات من عامين بعد مرض طويل، انتهى الحزن وبقيت عادات الحزانى

وأبرزها الصمت، صمت طويل لا يفرغ، إذ كان في الحقيقة صمت انتظار، فالبنات كبرن والترقب طال والعرسان لا يجيئون ومن المجنون الذي يدق باب الفقيرات القبيحات، وبالذات إذا كن يتامى؟ ولكن الأمل بالطبع موجود، فلكل فولة كيال، ولكل بنت عدلها، فإذا كان الفقر هناك، فهناك دائمًا من هو أفقر، وإذا كان القبح هناك، فهناك دائمًا الأقبح، والأماني تُنال أحيانًا بطول البال.

صمت لم يكن يقطعه إلا صوت التلاوة، يتصاعد في روتين لا جدة فيه ولا انفعال، والتلاوة لقارئ، والقارئ كفيف، والقراءة على روح المرحوم وميعادها لا يتغير، عصر الجمعة يجيء بعصاه ينقر الباب، ولليد الممدودة يستسلم، وعلى الحصير يتربع، وحين ينتهي يتحسس الصندل، ويلقي بتحية لا يحفل أحد بردها، ويمضي، بالتعود يجيء، بالتعود يقرأ، بالعادة يمضي، حتى لم يعد يشعر به أو ينتبه إليه أحد.

دائم هو الصمت، حتى وتلاوة عصر الجمعة تقطعه أصبحت وكأنها قطع الصمت بصمت، دائم هو كالانتظار، كالأمل، أمل قليل ولكنه دائم، فهو أمل في الأقل، دائمًا هناك لكل قليل أقل، وهن لا يتطلعن لأي أكثر، أبدًا لا يتطلعن.

يدوم الصمت حتى يحدث شيء، يجيء عصر الجمعة ولا يجيء القارئ، فلأي اتفاق مهما طال نهاية، وقد انتهى الاتفاق.

وتدرك الأرملة وبناتها الآن فقط كنه ما تقدم، ليس فقط الصوت الوحيد الذي كان يقطع الصمت، ولكن أيضًا الرجل الوحيد الذي كان ولو في الأسبوع مرة يدق الباب، بل أشياء أخرى يدركن، فقير مثلهن هذا صحيح، ولكن ملابسه أبدًا نظيفة، وصندله دائمًا مطلي، وعمامته ملفوفة بدقة يعجز عنها المبصرون، وصوته قوي عميق رنان.

والاقتراح يبدأ لماذا لا يجدد الاتفاق ومنذ الآن؟ ولماذا لا يرسل في طلبه هذه اللحظة؟ مشغول، فليكن الانتظار ليس بالجديد، وقرب المغرب يأتي، ويقرأ وكأنه أول مرة يقرأ، والاقتراح ينشأ، لماذا لا تتزوج إحدانا رجلاً يملأ علينا بصوته الدار؟ هو أعزب لم يدخل دنيا، وله شارب أخضر، ولكنه شاب وبالكلام يجر الكلام، ها هو الآخر يبحث عن بنت الحلال.

البنات يقترحن والأم تنظر في وجوههن لتحدد من تكون صاحبة النصيب والاقتراح، ولكن الوجوه تزور مقترحة -فقط مقترحة- قائلة بغير كلام أنصوم ونفطر على أعمى؟ هن ما زلن يحلمن بالعرسان، والعرسان عادة مبصرون مسكينات لم يعرفن بعد عالم الرجال، ومحال أن يفهمن أن الرجل ليس بعينيه.

-تزوجيه أنت يا أماه، تزوجيه

-أنا؟ يا عيب الشوم! والناس؟

-يقولون ما يقولون، قولهم أهون من بيت خال من رنين صوت الرجال

-أتزوج قبلكن؟ مستحيل.

-أليس الأفضل أن تتزوجي قبلنا، ليعرف بيتنا قدم الرجال فنتزوج بعدك؟ تزوجيه، تزوجيه يا أماه.

وتزوجته، زاد عدد الأنفس واحدًا، وزاد الرزق قليلًا، ونشأت مشكلة أكبر

الليلة الأولى انقضت وهُما في فراشهما، هذا صحيح، ولكنهما حتى لم يجسرا على الاقتراب، ولو صدفة، فالبنات الثلاث نائمات، ولكن من كل منهن ينصب زوج من الكشافات المصوبة بدقة إلى المسافة الكائنة بينهما، كشافات عيون، وكشافات آذان، وكشافات إحساس، البنات كبيرات، عارفات ومدركات، والحجرة كأنما تحولت بوجودهن الصاحي إلى ضوء نهار، ولكن بالنهار لم تعد ثَمَّة حجة، وواحدة وراء الأخرى

تسللن ولم يعدن، إلا قرب الغروب، مترددات خجلات يقدمن رِجلاً ويؤخرن رِجلاً، حتى يزددن قربًا، وحينذاك يدهشهن، يربكهن، يجعلهن يسرعن ضاحكات، قهقهات رجُل تتخللها سخسخات امرأة، أمهن لا بد تضحك، الرجُل الذي ما سمعنه إلا مؤدبًا خاشعًا، ها هو ذا يضحك، بالأحضان قابلتهن ولا تزال تضحك، رأسها عار وشعرها مبلل ممشط ولا تزال تضحك، وجهها ذلك الذي أدركن للتو أنه كان مجرد فانوس مطفأ عشش فيه العنكبوت والتجعيدات، فجأة أنار.. ها هو ذا أمامهن كلمبة الكهرباء مضيء ها هي ذي عيونها تلمع وقد ظهرت وبانت وتلألأت بالدمع الضاحك، تلك التي كانت مستكنة في قاع المهجر.

الصمت تلاشى واختفى تمامًا، على العَشاء وقبل العَشاء وبعد العَشاء نكت تترى وأحاديث غنَّاء، صوته حلو وهو يغني ويقلد أم كلثوم وعبد الوهاب، صوت عال أجش بالسعادة يلعلع. خيرًا فعلتِ يا أماه، وغدًا تجذب الضحكات الرجال، فالرجال طُعم الرجال، نعم يا بنات، غدًا يجيء الرجال ويهل العرسان، ولكن الحق أن ما أصبح يشغلها ليس الرجال أو العرسان ولكنه ذلك الشاب كفيف فليكن، فما أكثر ما نعمى عن رؤية الناس لمجرد أنهم عميان، هذا الشاب القوي المتدفق قوة وصحة وحياة، ذلك الذي عوضها عن سنين المرض والعجز والكبر بغير أوان.

الصمت تلاشى وكأن إلى غير رجعة، ضجيج الحياة دب، الزوج زوجها وحلالها وعلى سُنة الله ورسوله، فماذا يعيب؟ وكل ما تفعله جائز، حتى وهي لم تعد تحفل بالمواربة أو بكتمان الأسرار، حتى والليل يجيء وهم جميعًا معًا، فيطلق العقال للأرواح والأجساد، حتى والبنات مبعثرات متباعدات يفهمن ويدركن وتتهدج منهن الأنفاس والأصوات، مسمرات في مراقدهن يحبسن الحركة والسعال، تظهر الآهات فجأة فتكتمها الآهات، كان نهارها "غسيل "في بيوت الأغنياء، ونهاره قراءة في بيوت الفقراء، ولم يكن من عادته أول الأمر أن يئوب إلى الحجرة ظهرًا، ولكن لما الليل عليه طال والسهر أصبح يمتد، بدأ يئوب ساعة الظهر يريح جسده ساعة من عناء ليل ولى، واستعداد لليل قادم، وذات مرة بعد ما شبعا من الليل وشبع الليل منهما، سألها فجأة عما كان بها ساعة الظهر، ولماذا هي منطقة تتكلم الآن ومعتصمة بالصمت التام ساعتها؟ ولماذا تضع الخاتم العزيز عليه الآن؟ إذ هو كل ما كلفه الزواج من دبلة ومهر وشبكة وهدايا، ولماذا لم تكن تضعه ساعتها؟

كان ممكنًا أن تنتفض هالعة واقفة صارخة، كان ممكنًا أن تجن كان ممكنا أن يقتله أحد، فليس لما يقوله إلا معنى واحد، ما أغربه وأبشعه من معنى، ولكن غصة خانقة حبست كل هذا وحبست معه أنفاسها، سكتت بآذانها التي حولتها إلى أنوف وحواس، وعيون راحت تتسمع وهمها الأول أن تعرف الفاعلة إنها متأكدة لأمر ما أنها الوسطى، أن في عينيها جرأة لا يقتلها الرصاص إذا أطلق، ولكنها تتسمع الأنفاس الثلاثة تتعالى عميقة حارة، كأنها محمومة ساخنة بالصبا تجأر، تتردد، تنقطع، أحلام حرام تقطعها أنفاس باضطرابها تتحول إلى فحيح، فحيح كالصهد الذي تنفثه أراض عطشى، والغصة تزداد عمقًا واحتباسًا، إنها أنفاس جائعات ما تسمع، بكل شحذها لحواسها لا تستطيع أن تفرق بين كومة لحم حي ساخنة متكومة وكومة أخرى، كلها جائعة كلها تصرخ وتئن، وأنينها يتنفس ليس أنفاسًا، ربما استغاثات، ربما رجوات، ربما ما هو أكثر.

غرقت في حلالها الثاني ونسيت حلالها الأول، بناتها، والصبر أصبح علقمًا، وحتى سراب العرسان لم يعد يظهر، فجأة ملسوعة ها هي ذي كمن استيقظ مرعوبًا على نداء خفي، البنات جائعات، الطعام حرام صحيح ولكن الجوع أحرم، أبدًا ليس مثل الجوع حرام، إنها تعرفه، عرفها وييبس روحها ومص عظامها، وتعرفه

وشبعت ما شبعت، مستحيل أن تنسى مذاقه، جائعات وهي التي كانت تخرج اللقمة من فمها لتطعمهن، هي التي كان همها حتى لو جاعت أن تطعمهن، هي الأم، أنسيت؟ وألح مهما ألح تحولت الغصة إلى صمت، الأم صمتت، ومن لحظتها لم يغادرها الصمت.

وعلى الإفطار كانت، كما قدرت تمامًا الوسطى صامتة وعلى الدوام صامتة، والعشاء يجيء، والشاب سعيدًا وكفيفًا ومستمعًا ينكت لا يزال، ويغني ويضحك ولا يشاركه إلا الصغرى والكبرى فقط، ويطول الصبر ويتحول علقمه إلى مرض، ولا أحد يطل وتتأمل الكبرى ذات يوم خاتم أمها في إصبعها وتبدي الإعجاب به، ويدق قلب الأم دقاته وهي تطلب منها أن تضعه ليوم، لمجرد يوم واحد لا غير، وفي صمت تسحبه من إصبعها، وفي صمت تضعه الكبرى في إصبعها المقابل، وعلى العشاء التالي تصمت الكبرى وتأبى النطق، والكفيف الشاب يصخب ويغني ويضحك، والصغرى فقط تشاركه ولكن الصغرى تصبح بالصبر والهم وقلة البخت أكبر، وتبدأ تسأل عن دورها في لعبة الخاتم، وفي صمت تنال الدور

والخاتم بجوار المصباح، الصمت يحل فتعمى الآذان، وفي الصمت تتسلل الإصبع صاحبة الدور وتضع الخاتم في صمت أيضًا، ويطفئ المصباح والظلام يعم، وفي الظلام تعمي العيون، ولا يبقى صاخبًا منكتًا مغنيًا، إلا الكفيف الشاب.

فوراء صخبة وضجته تكمن رغبة تكاد تجعله يثور على الصمت وينهال عليه تكسيرًا، إنه هو الآخر يريد أن يعرف، عن يقين يعرف، كان أول الأمر يقول لنفسه إنها طبيعة المرأة التي تأبى البقاء على حال واحدة، فهي طازجة صابحة كقطر الندى مرة، ومنهكة مستهلكة كماء البرك مرة أخرى، ناعمة كملمس ورق الورد مرة، خشنة كنبات الصبار مرة أخرى،

الخاتم دائم وموجود صحيح، ولكن الإصبع التي تطبق عليه كل مرة تختلف، إنه يكاد يعرف، وهن بالتأكيد كلهن يعرفن، فلماذا لا يتكلم الصمت؟ لماذا لا ينطق؟

ولكن السؤال يباغته ذات عشاء، ماذا لو نطق الصمت؟ ماذا لو تكلم مجرد التساؤل أوقف اللقمة في حلقه، ومن لحظتها لاذ بالصمت تمامًا وأبى أن يغادره، بل هو الذي أصبح خائفًا أن يحدث المكروه مرة ويخدش الصمت، ربما كلمة واحدة تفلت فينهار لها بناء الصمت كله، والويل له لو انهار بناء الصمت، الصمت المختلف الغريب الذي أصبح يلوذ به الكل الصمت الإداري هذه المرة، لا الفقر، لا القبح، لا الصبر ولا اليأس سببه، إنما هو أعمق أنواع الصمت، فهذا الصمت المتفق عليه أقوى أنواع الاتفاق، ذلك الذي يتم بلا أي اتفاق.

الأرملة وبناتها الثلاث والبيت حجرة والصمت الجديد والقارئ الكفيف الذي جاء معه بذلك الصمت، وبالصمت راح يؤكد لنفسه أن شريكته في الفراش على الدوام هي زوجته وحلاله وزلاله وحاملة خاتمه، تتصابى مرة أو تشيخ، تنعم أو تخشن، ترفع أو تسمن، هذا شأنها وحدها، بل هذا شأن المبصرين ومسئوليتهم وحدهم، هم الذين يملكون نعمة اليقين، إذ هم القادرون على التمييز، وأقصى ما يستطيعه هو أن يشك، شك لا يمكن أن يصبح يقينًا إلا بنعمة البصر، وما دام محرومًا منه فسيظل محرومًا من اليقين، إذ هو الأعمى، وليس على الأعمى حرج، أم على الأعمى حرج.

جمهورية فرحات

ما كدت أدلف إلى القسم ومعي الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجىء . لم تكن تلك أول مرة أدخله ولكنها كانت المرة الأولى التي أرى القسم فيها في الليل ، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أني أدلف إلى خندق سفلي لا يمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضي القريب ... جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثاني .. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته . وأرض لزجة لا تدري إن كانت من الأسفلت أو من الطين ورائحة ... رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لا بد أن تحس معها بغثيان ، وضوء باهت يأتي من مصابيح بالغة القدم عشش عليها الذباب وباض ... مصابيح معظم ضوئها محكوم عليها بالسجن المؤبد داخلها والقليل الذي يتسلل منها هرابا لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمي به ويتستر وإن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة .

وأحسست حين احتوائي هذا كله وأصبحت جزءا لا يتجزأ منه والناس من حولي على سيماهم جد خطير يمشون كالمنومين ، وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسي المقهى إلى صادرها بوليس البلدية وهي مكومة في ركن وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورؤوسهم مائلة على حجورهم . والعساكر يبدون في أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل .

أحسست حين احتوائي هذا كله أنني لا بد أنا الآخر قد ارتكب جريمة ونسيت ومنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع ولم أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان على أن أحجز في القسم ليلة لأرسل إلى النيابة في صباح الغد .. واحتاروا أين يضعونني فالحجز كان ممتازا والحجر الأخرى التي يوضع السياسون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة ، ولم يبدوا لي في النهاية خيرا من حجرة الضابط التوبتجي . وهناك تركت ومعي حارس ..

كانت الحجرة على سعتها تضيق من فيها ، وكان أبرز الموجودين جميعا الضباط النوبتجي ، وحين رأيته جالسا إلى مكتبة كالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة في فضاء الحجرة . وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة في الجدارن والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدورع والبلط والخوذات ، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة .. حين رأيته هكذا تخيلت أن لا حدود لرهبته وقوته ، وأنه يستطيع ببساطة أن يفضم دراعي أو يضع أصبعه في عيني ، مع أني كنت متأكدا أن لا شأن لي به ولا شأن له بي ...

ووجدتني أترك كل ما في نفسي وكل ما يشغلني وأنضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه ، والذين لا يفصله عنهم إلا سور خشبي منخفض ...

وبدا لي أول الأمر وكأنه ليس بكائن حي ... وإنما جسده فقد صنع من طلاء الجدران الأسود . ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه . وعيناه فتحات بنادق ولسانه لا بد كرباج ...

ولكني حين هدأت قليلا واعتدت على المكان ، وتأملت كيف وضع " الكاب " فوق رأسه في وقار مخيف وزرر معطفه الضابطي - على غير العادة - إلى آخر زرار فيه ، وشد جلد وجهه في تزمت صارم فاختفى كل ما فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجدل الطبلة المشدود ، وأضفى على نظرات عينيه بريقا تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقد ما ينقر ويلسع وحمل صوته ما لا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص .

حين تأملت كل هذا بدا لي حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى الذين كنا نراهم أثناء الحرب ... وحدث أن جاء شاويش أو بيتشاويش لا أذكر ووقف أمامه ونادى عليه :

- يا فرحات ...

عجيب كيف ينادي بلا تكليف هكذا ، ولكن عجبي زال حين قال مرة أخرى .

- يا فرحات ... ياسي فرحات ...

ولم يرد الضباط النوبتجي إلا بعد أن قال له الرجل ... يا حضرة الصول ....

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيري المستندين على السور الخشبي وسمعت لهجته التي فيها آثار باهتة من ريف الصعيد ونم صوته العالي عن الفضاء الواسع الذي ترعرع فيه ، وعن مسلتزمات الوظيفة من شخط ونظر وقد عملت عملها طوال تلك السنين فأتلفت صوته وأضافت إليه حشرجة كالتي تلحق براديو القهوة البلدي من كثرة رفع صوته . وذهب الجنرال من خاطري تماما ووضحت أمام عيني ملامحه التي كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة ، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع ، وشيخوخته التي تنم عن تاريخ حافل في خدمة البوليس إذ لا بد قضى أجيالا حتى يصل إلى رتبة الصول ، وقد دخل الخدمة . " نقرأ " ككل الأنفار ، ورأيت جسده العجوز على حقيقته مستقيما في أجزاء منبعجا في بعضها الآخر ، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و " القايش " ... فرضت على جسده شكلها فرضا كما يفرض قالب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده . وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجي ، ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذي - بلا شك - قد قضى ثلاثة أرباع عمره يحلم بهذا وينتظر اليوم الذي يحمل فيه كتفه " النجمة " .. وكان باديا أن كتفه لن تحمل شيئا من هذا القبيل ، فهو ,إن كان يقوم أحيانا بدور الضابط النوبتجي إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة ، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثاني ... وحين تركته وأدرت بصري في الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التي تركها أصحابها ، ودولاب الدوسيهات ، والمروحة القديمة الموضعة فوق الخزانة والتي كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل ، وقد صنع التراب من نفسه عناكب فوقها ، والمصباح الكهربائي الذي له " برنيطه " من الصاج ، والذي يتدلى من السقف حتى يوازي رأس فرحات المائل على ما أمامه من أوراق ، والناس المزدحمين

حول الحاجز الخشبي والذين يكونون خليطا - إن تنافر في أشياء - فإنه يتفق في نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المنقبضة الجامدة . كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة وتضمهم سلسلة حديدية طويلة ، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزنا للسلاحليط أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه .. فشخطته تقابل بزمجرة وأحيانا برد لا يقل عنها قسوة ، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية ، وكان عليه لهذا أن يمكث في الحجز بلا إفراج حتى يجئ انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر والذين كانوا السبب . ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجي هو الآخر . ولمحت الضابط الذي في فرحات يعاني الحرج الشديد ، وهو يسمعهم يدرون ، ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع - كالضباط الحقيقيين في نظرة - إخماد ضجتهم . ولما انتهى منهم ومضوا وعسكري في أول صفهم وعسكري في آخره ، والسلسلة ترن وتصلصل وهم لا يزالون يسبون ويلعنون ، تنهد فرحات تنهد الذي وضع أصبعه في الشق .

حين تركته وأدرت بصري لكل هذا وعدت إليه وجدت حينئذ يبدو عجوزا جدا ... عجوزا إلى الدرجة التي تحس معها أنه عهدة من عهد الحكومة عثرت

عليه ذات يوم أثناء " كبسة " على بلدنه فصادرته وختمته بالطربوش الأحمر والبدلة الميري . وظل في مخازنها حرزا من الأحراز يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى ما عليه من أختام .

وقال وهو يجوس بعينيه خلال الموجودين :

- أف ... أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دي شغله .

وتوقفت عيناه على وفيها دعوة واضحة . وكنت أنا الآخر لي ساعات وأنا صامت فوجدت نفسي أقول :

- ايه ... الشغل كثير وإلا ايه ؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر :

- يو هوه يا أستاذ ... هو ده شغل ؟ دا سرك ... دا موريستان ... الناس اجننت ... يعملوا ايه ؟ .. حيخس عليهم حاجة ؟ كله على دماغنا والنبي أنا أشتغل في الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة .. والأكاده أن كله كلام فارغ .. كله كدب ... تبالى وحياتك .

اللي معور نفسه ... واللي ضاع منه شاكوش .. واللي كان نايم قال وراحت طاقيته .. ونروح بعيد ليه ؟

مش دي واقفة من الصبح ؟ مالك يا بت ؟ أبقي مش الصول فرحات إن ما قالت أنهم ضربوها وأخذ سيغنها ... مالك يا بت ؟ فيه ايه ؟

وكانت " البت " امرأة واقفة ضمن الواقفين ترتدي ثوبا كان أسود ثم أحاله ساحر الحاجة إلى رمادي . وتتعصب بمنديل كالح لا يخفي إلا القليل من شعرها البني الأكرت القصير وقد تلوث نهاياته وتنافرت . وكان وجهها غامقا أسمر . وفي عينيها كحل أفسدته الدموع ...

وردت تقول في ذلة :

- أم سكينة والبت عيوشة وبنت أختها نبوية والود ...

- مالهم ؟ مالهم ؟

- اتلموا على وضربوني في بطني .. آه يانا ...

وفي ومضة خاطفة كانت في حالة بكاء تام . وأضافت والدموع والشهقات تختلط في حلقها ...

- وأم سكينة .. عضتني .. هنا .. في كتفي ... وزغدتني في بطني ... والبت عيوشة قلعتني الحلق .

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال :

شايف يا أستاذ شايف ؟ مش قلتلك ؟

كله وحياتك كدب ... نصب واحتيال .. بقي بذمتك دي حيلتها البلى الأزرق ؟ حلق أيه يابت اللي خدوه ؟ حلق حوش ؟

- حلق ذهب يا بيه وغويشتين ..

والتفت الصول إلى وقال بلهجة ذكرتني بنجيب الريحاني :

- تفتكر والنبي مين المجني عليه في الحكاية ده ؟

- مين ؟ ...

- أنا ! ...

- أنا !...

- أنا يا فندم .. ما هو الكدب العلني ده يبقي سرقه بالإكراه .. ومحضرها المصيبة من صورتين . والمصيبة الكبرى أن أنا اللي حاكتب الصورتين ... واستدار إلى المرأة ولسعها بنظرة كاوية فيها أثار من لمعة الضحك وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة المتولي وقال :

- هه .. الهي وأنت جاهي ربنا يا خدكم ويخدني معاكم خليني استريح ..

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها :

- اسمك ايه يا بت ؟

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل بإجابتها . وواجهني مستأنفا كلامه وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني :

- وأنا والنبي المجني عليه .. ومش في الواقعة دي بس ... في ألف واقعة .. في دشليون .. يمكن ما تصدقش .. اتفضل أدي دفتر الأحوال .. اصطبحنا بهتك عرض في الطريق العام و 592 اللي بعدها نشل حافظة نقود قال فيا قال 147 جنيه و 83 صاغ وورقتين ، ويمكن لجل الحلفان خمسة تعريفة كمان . واللي بعدها قال سرقة نحاس .. قابلين في البلاغ أن النحاس وزنه 50 رطل ومتهمين الخدامة ... حتة بت قد كده متطلعتشي كلها على بعضها عشرة أرطال .. وغيره وغيره .. من الصبح وأنا وأنا أيدي ما وقفت من الكتابة .. وكله ملاليم وكلام فارغ وكدب ... يا شيخ فضل .

والتفت إلى المرأة يسألها :

- ما تنطقي يا بت .. اسمك ايه ؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكته :

- واللا الجثة اللي لقيوها في الخرابة مالهاش صاحب ... قصدى صاحبها مجهول ... ليوا السر الإلهي طلع منه كده لوحده ومن غير ما حد يكلمه ... قوللي ؟ ... اشمعنى نفي الخرابة دي يموت فيها ؟ ... يعني ضاقت الدنيا في وشة ... ماكنتشي يتمشي لحد شبرا مثلا ؟ الله يرحمه مات ... وأتعذب أنا ليه ؟

نهايته .. كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم .. وأدار رأسه إلى المرأة :

- يا وليه اسمك ايه ؟ ...

- خديجة ...

- خديجة ايه . انطقي ...

- خديجة محمد ...

- يا وليه تحركي ... محمد ايه ...

- وقبل أن تجيب أرقد قلمه ... وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة " الكاب " . والمصباح الذي أمامه يهتز كالبندول فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذي خلفه .. يتحرك رائحا غاديا كقرد كبير :

- أنا المجني عليه والنبي .. هي حكاية محضر ؟ هو أنا عجزت من شوية ؟ ثلاثين سنة خدمة وحياتك ويوميا بهذا الشكل ... جبتها من المنزلة لعنيبة ومن العريش لمرسي مطروح .. وشفت اللي أدبح عشان عود قصب . واللي حرق جرن علشان كوز دره .. الناس أجننت .. هو الواحد شاب من شوية ؟ ...

وأنهي كلامه فجأة وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلا :

- قلتلك ميت مرة شوفلك نشافة تانية ... هو ما فيش في القسم كله إلا دي ؟ ...

أعوذ بالله احنا في سوق النور ؟

قال هذا وانظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح والتفت إلى بوجهه الجاد المشدود الملامح :

- والواحد يبقي حارق دمه ... وأولاد الـــ " ..." ولا هاممهم وعمالين يهزروا .

وكان يشير بعينيه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير ، وكان بعضهم بكتفه والآخرون يحاولون جذب بنطلونه وإنزاله ، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة ... ويركن عيني لمحت الصول فرحات يبتسم ويضحك ويقهقه ، ثم ينسى كل شيء ويمد رقبته يتابع المعركة . وظهر عليه أسف حقيقي حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش وتخلصه ممن حوله . ورفع حينئذ صوته قائلا بلهجة صعيدية خالصة :

- آه يا نسوان ... ما قادرنشي على أبو كرش كليته " شغت " ؟ !

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبي وظهر المعاون في الفناء وأصبح القسم فجأة أصم وأبكم وهبطت الصرامة تجمد كل شيء وقال الصول للمرأة في حزم :

بتقولي اسمك خديجة محمد ايه ؟ ....

وتركته يحقق وشغلتني عنه داورية الليل وقد بدأت تتجمع في الفناء وحين تجمعت بدا منظرها عجيبا ... صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزراير النحاسية الصفراء وفوق الظلام نار من الطرابيش الحمراء الممدودة تسند البنادق بلا حماس ... وتسمع في الظلام همهمات وضحكات تموت سريعا كالشهب . وقد يشذ عن الأيدي الممدودة كوع ويلكز جاره .

وفتش عليها المعاون وأنفه - كالديك الرومي - في السماء وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده . وراح وجاء ثم دخل حجرته . والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو ما زال يمضغ وعلى شفتيه لمعة وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل .

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات وعواقب بعض وكدر آخرون ....

ثم ...جنبان سلاح و .. كتفان سلاح .. و ...داورية ... معتادان مارش ...

وخرجت داورية الليل تئز وتتمايل وفي آخرها العسكري البدين يحاول عبثا أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة ...

وأصبح فناء القسم بعد خروجها خاويا كعربة قطار الليل حين يقترب من آخر محطة . وعدت إلى الصول فرحات فوجدته لا يزال يحقق مع المرأة ويسألها :

- اتلموا عليكي فين؟ ...

- جوه السيما ...

- وايه اللي دخلك السيما يابت ؟ ....

- محمود ....

- محمود مين ؟ ...

- محمود !! ...

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته وسألها وجبهته معقودة دون أن يكتب في المحضر :

- محمود دا ايه يابت ؟ ...

- ابن خالتي ....

ووضع القلم من يده وهو يقول :

- آخ يا بلد كابوريا يا ولاد الـــ ....

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التي تباع فيها السجاير الغالية ولمحت فيها سيجارتين سادة وواحدة بفله وعلبة كبريت وأشعل السادة وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآباء والأجداد وانجاب الأبهام حين قال لنفسه .

- سيما ... هه ... قال سيما قال ؟ ... وتدخلوا السما تنيلوا ايه ؟ ... هو انتو بتوع سيما ؟ ..

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى

ظهره إلى الوراء ووضع ساقا فوق ساق

- وتدخلي بعينه ناحيتي ولعله كان يود أن يشهدني على إجابتها فقلت له :

ايه هو المحضر لسه ؟ ...

- آه ... لسه ... هو هيخلص ؟ ... حاضر .. أنا عارف إني عطلتك .. دقيقة واحدة وأفضالك ..

والظاهر أنه حسبني شاكيا أو مبلغا .. ربما هذا .. وربما وجدني أصلح مستمعا يفضفض لي بما عنده في ليلة من لياليه الطويلة فآثر أن يؤجل انصرافي .. وكتب شيئا وهو يبتسم ويقول لي :

- وادي انت بتتسلى ... مش بذمتك أحسن ما لسيما ؟ ..

وتنهد وسأل المرأة ...

- هبه .. وطليقك سلط عليكي ليه ؟ تروحي السيما تنيلوا ايه ؟ ... ما تتكلمي يابت طليقك سلط عليكي ليه ؟ ..

- أصلي واخده عليه حكم نفقه ...

وكتب كلمة أو اثنين والتفت إلى بنظرة فيها استنكار :

- روايات ؟ سيما ؟ روايات ايه اللي بيعملوها دي ؟ يبلوها ويشربوا ميتها أحسن !

- ليه مبتعجبكش ؟ ...

- تعجبني ؟ تعجبني ازاي ؟ الفيلم لازم يملأ مخ الواحد ... إنما ايه المسخرة والرقص اللي لا تجيب ولا تودى ...

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبدلا من أن يكتب قال لي بفتور :

- أنا مثلا لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم ...

ولم تجعلني قلة حماسته أصغي إليه تماما . ولكن كلامه وقع في أذني غريبا فقلت :

- علمت ايه ؟ ..

- علمت فيلم .. رواية .

- عملت ازاي ؟ مثلت فيه وإلا ايه ؟ !

لا .. فيلم ألفته مخصوص عشان السينمات .. وكدت استخف بالأمر كله وأضحك فقد اعتقد أنه لا بد شاهد حادثة أو جناية من جنايات التي تحفل بها حياته ويريد بسلامة نيته أن يجعلها فيلما . فقلت وأنا أكتم ضحكتي :

- فيلم ايه بقي ؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحنح أو يعتدل أو يضع القلم ، أو حتى يلقي بالاً إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز :

- كان واحد هندي جه يزور مصر .. راجل غني قوي ... من الجماعة اللي عندهم فلوس قد الفقر اللي عندنا ... الراجل جه .... وقعد في لوكاندة فخمة قوي زي ما تقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبت ... وكان فيه جدع إلبان زي حالاتنا كده ...

وانبهت حواسي كلها فجأة ...

وملت على السور كثيرا حتى لا تفوتني كلمة من كلماته ..

وأقبلت امرأة تستغيث في شبه صراخ ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة ... وزمجر فيها الصول فرحات :

- مالك يا وليه ؟ .. مالك ؟ القيامة قامت ؟ ...

- الحق يا خويا .. الحق .. الواد موت أمه م الضرب !

- واد مين يا وليه ؟

- الواد ابن جارتنا ..

- واحنا مالنا ؟

- يوه مش أنت يا خويا النبي حارسك البوليس ؟

- وهو يصح أن البوليس يدخل بين الواد وأمه ؟

- يه ... ولما يموتها الدلعدي يا خويا ؟ !

- تبقي تفرج .. نبقي في الحالة دي نروح نمسكه ...

ويئست منه المرأة فانتحت ركنا قصيا بالعسكري الذي كان يحرسني وراحت تهمس له بالقصة وتهمس له أكثر بحواجبها . ثم غادرت القسم والعسكري ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب .

وعاد إلى الصول فرحات وقال :

- أما مصايب صحيح . واد قال ! ... بس ... الجدع الإلبان ده كان خالى شغل .. يعني زي ما بيقولوا موظف في كوبانية الشمس .. يعبي الشمس طول النهار في قزايز ويسرح بيها في الليل ... هيء هيء .. آمال ! ... آه .. فتك في الكلام .. الراجل الهندي ده مرة طالع م اللوكاندة فوقع منه فص ألماظ يسوى النهاردة بالميت سبعين تمانين ألف جنيه شافه الجدع المصري قام واخدة ومديه للغني الهندي ..

- فص ايه يا راجل يا بكاش ؟

والتفتنا سويا ، وكان الذي قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات :

- عملت ايه في المتوفي المجهول الاسم ؟

- وهب فيه فرحات :

- حاعمل ايه يعني ؟ أمشي في الشارع أقول ياللي ضايع له ميت ؟ ...

- أنا رحت المستشفى وشفته ...

- تشرفنا ...

- شوف يا سيدي عنيه عسيلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن ..

- وبتقول لي الكلام ده ليه ؟ ... هو أنا بعتك تخطبه ؟ ... روح شوف شغلك أحسن .. عسلية ايه يابو طويلة يا هاتف ؟

ثم التفت إلى قائلا : الراجل الهندي جه يدي للمصري فلوس إلا رأسه وألف سيف ما يأخد ولا مليم ، يهديك يرضيك ما فيش فايدة فكبر قوي في عين الهندي واكيف منه تمام .. راحت الأيام وجت الأيام وروح الغني بلده وهو محتار يجازي المصري ده إزاي ، فلقي أن أحسن طريقة أنه يشتري باسمه ورقة لوترية .. تعرف البريمو كانت تكسب كام ؟ وإلا استنى أما نشرب شاي ...

وصفق كثيرا حتى جاء صبي البوفيه ، وطلب الشاي واختلف معه طويلا على الطلبات التي تناولها في يومه .. الصبي يقول ثلاثة وهو يقول اثنين . ولم ينته الخلاف حتى باحضار الشاي .

وسمعنا باب المعان وهو يفتح والمعاون يخرج ويقف في الفناء ويتمطى ، وعاد فرحات يسأل المرأة :

- هيه ايه الحكاية ؟

- لما خدت عليه الحكم .. لف على عايزني أتنازل .. مارضيتش فبعتلي أمه وأخته وبنت خا ...

- هوس ... كفاية لحد هنا ... واتلموا عليكي في السيما ؟

- ايوه وفضلوا يضربو فيه لما كانوا حيسقطوني ...

- ايه ؟

- أصل أنا حامل في ست أشهر ...

وترك الصول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها :

- يخرب بيتك ... حامل من مين يابت ؟

- منه يا بيه ... من طليقي ...

- امتى ؟

- قبل ما يطلقني ...

- وجوزك ده طلقك ليه وأنت حامل ؟

- عشان وقع على اليمين ...

- يمين ايه ؟ وطلقك امتى ؟

- ليلة أول رمضان اللى فات ... كسرت قلة أمه وأنا قايمة أتحسر فحلف طلاق بالتلاثة ليكسر قصادها دراعي !...

- وكسر دراعك ؟ ...

- لا ... طلقني ...

- أنا قلبي كان حاسس والنبي ... بقي قلة أمه هي السبب ؟

بقي عشان قلة أمه اكسرت في رمضان اللي فات ، يتحرق دمي النهادره طول اليوم ..قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها ؟

- اسمعي يا بت ! هل لديك أقول أخرى ؟ عايزة تقولي حاجة ثانية ؟

- أيوه يابيه ... عيوشة هي اللي مقلعاني الحلق .. وأمها هي ...

- أف .. يا بت أقوال أخرى غير اللي قلتيها ؟

- هو أنا لسه قلت حاجة ...

ولم أتمالك نفسي فضحكت . وتحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر . وتنهد وتثاءب وهز رأسه .

وخرجت المرأة ومعها خطاب الكشف عليها ولدهشتي خرج معها كل الناس الواقفين .

- هيه ... كانت البريمو تكسب كام ؟ ...

- انت لسه فاكر ؟ ... تكسب مليون جنيه ... ما هي كانت غالية كمان !

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب ، وجه السحب واحدة منهم كسبت البريمو ... مليون من غير الضريبة . وفكرشي الراجل أنه يطمع عليها ولا حد دري ؟ أبدا .. عمل ايه ؟ راح شاري غليون بضاعة كبير قوي ... ووسقه حرير هندي من اللي على أصله ... واشي عاج ... واشتي ريش ... نعام ... واشي جوخ وكشمير ومايوليا محترمة ... وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللي عليها على اسكندرية ، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا على

مصر .. يعني ما عليه إلا يستلم .

وهب ... وصلت المركب اسكندرية .. حاجة باسم الله ماشاء الله .. وبتاعه مين يا جماعة ؟ ... بتاعت فلان ... بالاختصار الراجل باع البضاعة اللي عليها واشترى بيها مركب تانية ، وخلى مركب رايحة بلاده بره شاحنة ومركب جاية شاحنة ، وإذا كان حتة الطرد قد كده الواحد بيخلص عليه في السكة الحديد بكذا ... شوف بقي مركب زي دي تكسب قد ايه في السفرية ...

واندفع في هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدي جلبابا كله زيت وبقع ورأسه عار .. ويرتدي قبقاباً له صوت مزعج ، اندفع كالسهم داخلا وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم :

- يا فندي ... يا فندي ...

وضايق دخوله الصول فرحات ، وكأن أحدهم قد صوب إلى أرنبه أنفه لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه :

- مالك ؟

- ماليش يا فندي ... واد ابن حرام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع بترينة الدكان ... لوح القزاز اللي معرفشي أجيبه النهادره .. بنور بلجيكي من الأصلي اللي قبل الحرب .. تلاتة متر في تلاتة ... روح الله يخرب بيتك يا بعيد زي ما خربت بيتي ...

دكان ايه ؟ ...

- بقالة المودة والإخاء في الشارع العمومي ..

- عارفها .. إلى عالناصية قدام الجاراج ؟ ...

أيوه .. إلهي يعمر بيتك .. ربنا مايوريك ...

البترينة نهين اللي أكسرت .. اللي عالشارع وإلا التانية اللي ع الحارة

- الكبيرة يا فندم اللي ع الحارة ...

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر

ويستعد لمتابعة الرواية :

- تبقي مش تبعنا .. تبع بولاق ...

- إزاي يابيه والبيت تبعكو...

- الناحية اللي ع الحارة تبع بولاق ...

- يا فندي أعمل معروف ...

- قلتلك مش تبعنا .. روح قسم بولاق ...

- ياف ...

- روح .. جك ريح خماسي ..

واندفع الرجل يقبقب خارجا كالسهم وانتظر فرحات حتى اختفت دقات القبقاب ثم رجع محاولا أن يستعيد الجو الذي عكره القال .. وثنى ظهره إلى الوراء كثيرا ومال الكرسي لاتثنائه .. وخلع الكاب وأمسك به في يده يدبره أحيانا وأحيانا يهف به وقال :

- الراجل كان طهقان من مراكب الخواجات ، ففي ظرف سنة بنا اداله واتسع قوي .. وحبه يحبه راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها ... وما أصبحشي فيه مركب انجليزي ...

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تاخت وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة واشمئزاز واتخذت طابعا عجوزا راضيا . وعيناه هامتا في مساء الحجرة كفراشتين حالمتين ، وصوته خلا من كل تشويش وحفل بنشوة طارئة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنه محلاوة بعس النحل ، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهي تنساب في تؤده من خلال السكون الحزين الذي خيم حتى أصبح القسم كسرادق المأتم في آخر الليل ، حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات .. وهمسات المعزين :

- وأصبح للراجل مراكب لا تحصى ولا تعد ... أصغر ما فيهم تيجي قد القسم دهه عشرة خمساتشر مرة . يسكتشي على كده ؟ أبدا ... الفلوس مالحستشي عقله فراح شاري بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوي ... وشغل النسيج نص مليون عامل ... بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز .. والقزاز عمل مطاحن .. ومضارب رز ... وبعد كله اشي محالج واشي سكر .. واشي جاز .. واشي ورق .. واشي مكن ... واشي صلب ... المهم إنه جه يوم عليه امتلك فيه مصانع مصر كلها ...

وما عجبوش الحال الملخبط ده فراح لأنم المصانع وبناها على حتة تطلع ألف فدان لا... ألف ايه ؟ ... هي الألف تنفع .. ييجي عشرة آلاف فدان .. خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف التانية سكن فيها العمال .. مش سكن كلشنكان ... لا ... سكن .. بيت .. بجنينة ببلكونة وحاوي مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب ... ومش بس كده كان ما يخدش من عرق العامل حاجة ... اشتغل بخمسة يأخد خمسة .. بعشرة بعشرة .. ما هو لا مؤاخذة في دي الكلمة العامل لما يأخد إلى يقضيه يشتغل ويتفرعن في الشغل ... واحنا شعب وارث الفرعنة أبا عن جد ... فبدل ما يطلع متر يطلع مترين ... وبدل جزمة جوز جزم ... مهو كده هات وخد ... اديني حقي وخد حقك .. أنت راخر العالم أصبح حاجة تانية ... هدوم نضيفة أربعة وعشرين قراط . عفريته مكوبة يروح بيها الشغل وبيجي بعد الضهر يلبس بدلة الأيافة والطربوش النسر والجزمة الأجلسية . وقهاوي ايه وجناين ايه وكازينات ايه وأبهة ايه ... والناس بقوا حلوين وفرحانين ومبسطوطين ... ولا قرف ولا بالاوي .. طول النهار ضحك وفرفشة والليل يروحوا السيمات .. والسيمات دي مهمة قوي ... كل شارع سيما وبالأمر لازم كل كبير وصغير يخشى ... والأفلام . أفلام تمام ... وبوليس مفيش بوليس ... العسكري بدل ما يتطلع 8 ساعات في الدوراية له كش قزاز في قزازة في وسط الشارع ... وكتب صغير واللي عازي حاجة بجيله ...

استنى بقي لحسن الواغش بعيد عنك جه .. أما نشوف إيراد النهاردة حيبقي كام ... وحقيقة كنت أسمع الضجة القليلة التي أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت له تماما ...

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال عراض أيضا ويرتدون اللبد ، وقد أمسك كل منهم في كل يد من يديه قبضة أطفال مشردين ، ومتسولين عجائز وكل منهم يجر ما في يديه جرا وقد ربط جلباب الطفل في جلباب الآخر ... وكان المخبرون يبدون كالعمالقة الطوال ، والأطفال يبدون بجوارهم قصار وصغارا ، كالكتاكيت المذعورة ، وعبروا الفناء ووصل ركبهم إلى السور الخشبي ، وكذلك وصلت ضجتهم فأنهي الصول فرحات كل الأصوات بقوله :

- بس .. اخرس أنت وهوه ... وقفهم طابور يابو طه قدامي .. بطل كلام عمى في عينك ...

وذهب باقي المخبرين واصطف الطابور في سكون .. ورجع الصول فرحات إلى الوراء كثيرا وهو لا يزال في نشوته فقلت :

- وبعدين :

- ولا قبلين ... حالا مكن من المانيا جه ... والمهندسين والعمال اشتغلت ... وارجو زراعينلك الصحراء كلها ...شوف بقي الرملة دي كلها لما تزرع ؟ .. الاكس يمشي فيها سبع تيام ما يحصلش آخرها .. وأهم من ده وده إن ما فيش قولة حاجة اسمها توابيت محاريث ... سواقي .. كلام فارغ ده ... كله مكن ... الري يمكن والدراس يمكن والسباه يمكن ...

وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم والفلاح اللي عليه العمل .. مفيش قولة جلايبة طاقية ... بشت ... أبصر ايه معرف ايه ... أبدا كله يدل ... بنطلونات كاكي لحد الركبة ويرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل ما يدوبش أبدا . والفلاحين يسرحوا طابور يشتغلوا لغاية الضهر بس وبعدين يرجعوا طابور .. والنسوان كذلك ... بس دول في غيط ودول في غيط .. والبيوت كلها حجر ... ولمض جاز تبطل خالص كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض ... وكل صف بيوت له ميز باكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا ، وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللي لهم من اللي عليهم . بس يا سيدي ما طولشي عليك الراحل من كتر الفلوس عنده زهد فيها كانت أرخص من التراب ... وحاكم الفلوس لما تبقي بالشكل ده الواحد لازم يقرف منها . اللي ياكل كل يوم بيقرف منه ... في يوم من الأيام أعلن في الراديون .. أيوه .. مهو نست أقولك إنه عمل محطة إذاعة وعمل ليها في كل بيت من البيوت وصلة .. أعلن في المكرفون أنه متنازل عن جميع .

وكان الصول فرحات ينظر إلى ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر في مشكلة أخرى ...

وقال للعسكري فجأة :

- أنت واقف بتعمل ايه يا جدع ؟ ! أنت ما وراكشي شغل ؟ ...

وقال العسكري في صوت متقطع :

- أصل ... إلا .. الأفندي .. أنا مستلمه ...

- مستلمه ؟ ليه ؟

حرس عليه ...

واستدار إلى الصول فرحات وألقى على نظرة ما رأيتها منه قبل الآن واستمر يحدجني طويلا . ولا ريب أنه لم يجدني أصلح كي أكون قائلا أو سارقا أو خاطف طفل ولست أدري ما كان يعنيه حين قال في بطء وشك كثير :

- آه الأفندي ده هو أنت منهم ؟

فقلت وأنا أبتسم :

- من مين ؟ .. المهم ... الراجل أعلن ايه في الإذاعة ؟ ...

واستمر ينظر إلى ثم قال بصوت تائه :

- آه ... والله مانا فاكر .. يا شيخ فضك ... أهو كلام .. أنت بتصدق ؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلة الصارمة وجذب " الكاب " حتى بلغ موضعه التقليدي من جبهته تماما . وهوى على " المتسول " العجوز الواقف في أول الصف بنظرة صاعقة من عينيه وانطلقت جعجته المعهودة :

- ما تنطق يا بجم ... اسمك ايه ؟ !

لغة الآي آي

لم تكن بالضبط صرخة ولكنها كانت الأولى بعد منتصف الليل بقليل ، تصاعدت ، غير آدمية بالمرة . حتى الحيوان ممكن إدراك كنه صوته . ولكنها بدت لأول وهلة جمادية ذات صليل . كعظام تنكسر وتتهشم تمسكها يدا عملاق خرافي القوة وبنية صارمة لا رحمة فيها تدشدشها .. فجأة وفي المنزل الهادئ المظلم الفاخر الإظلام ، السابح في سكون مسود تلمع فيه حواف الموبيليا الأنيقة الموزعة بعناية وذوق ، بيت ساكن نائم يرفل في رائحته الليلية الخاصة التي تميزه عن أي بيت ، وفي الحي المترف الذي تتثاءب نوافذه وأضواؤه واحدة وراء الأخرى ويؤوب إلى الرقاد على ضجة المدينة ووسطها المستيقظ كغمغمة غارق في الأحلام .

وفي وسط هذا كله ، ومن مكان لا تستطيع تحديده أو تعرف إن كان يمت حتى إلى الحي . تصاعد ذلك الشيء الغريب الغامض الأول ، مفاجئا وكالطعنة الملتاثة ، حافلا بأنين التمزق ، وكأنه صادر من حنجرة تتمزق أحبالها الصوتية لتصدر الصوت ويكاد يمزق طبلة أي أذن يقع عليها .

ودونا عن سكان الحي والبيت ، بدا وكأنه الكائن الوحيد الذي سمعه ، كان مغمض العينين لا يزال بينه وبين النوم مشكلة لا بد لها من حل ، ومر الصوت مفاجئا غير مألوف من الصعب تبينه ولكن جسده في اللحظة التالية كان يقشعر بخوف طفلي مذعور وإن لم يتسغرق زمنا . أسلمه إلى عينين مفتوحين لآخرهما وقلق وعاصفة من الاضطراب ، فالإحساس التالي الذي واتاه كان إحساسا بالذنب ، شعور غامض يربطه بالصوت ، ويؤكد أن الصلة بينهما من صنعه ومسؤوليته ، وأن عليه وحده يقع التحمل للنهاية ، وبالغريزة التفت كانت زوجته لا تزال على وضعها ففقط في اللحظة التي التفت فيها ماءت مواء طال بعض الشيء ، ثم بإرادة نائمة انتقلت إلى جنبها الأيسر وقربت ساقها ، ربما كان الأثر الوحيد الذي أحدثه الصوت في جسدها المستسلم لأول مراحل النوم ، وارتاح وبعض الشيء اطمأن وهو يواجه الأمر وحده ، فقد كان ظهورها على المسرح لحظتها كفيلا بزيادة ارتباكه . ما هذا الصوت ومن أين جاء ؟

في لحظة مر بخياله ألف احتمال إلا الاحتمال الوحيد الذي كان يخاف مروره . لم يكن قد تغير في البيت أو في الحي أو في دنياه كلها شيء ما عدا ذلك الشيء الواحد الذي اغتم له ، ولا بد أن يكون الصوت الجديد من صنع القادم الجديد حتى ولو نفى عقله بشدة وأبي أن يصدق .

ولم يشأ أن يفكر أكثر مجرد صوت وحدث ، المهم ألا يعود يحدث ، ومر بعض الوقت ، أحال اللحظة إلى دقيقة ، أو دقائق ، ولا شيء يتغير داخل الليل الساكن ، والأمل يقوي ...

ولكن وشوشة غامضة حدثت ، اندفع منها إلى أعلى فجأة صوت كالطوفان الهادر العمودي له وقع العظام نفسها وهي تحق وتتدشدش ، صوت أقرب إلى رعد تنفثه السماء في ماسورة مكتومة ، ما لبثت أن فتحت وسلكت في استغاثة راعدة مولولة ممدودة يخاف صاحبها أن ينهبها وكأنما الموت عند نهايتها .

انتهى الأمر ، لم تعد هناك فائدة .

كان هذا الصوت الثاني مزعجا حقا حتى أنه ، مع علمه هذه المرة وتأكده من مصدره ، لم يستطع كبح جماح ارتجافته ، ليس خوفا منه ، وإنما من الشيء المجهول المروع الذي يختفي لا بد وراءه ويحدثه ، مزعجا ومحيرا إلى درجة لم يلحظ معها أن رفيقة الفراش قد اعتدلت نصف اعتدالة والتفت إليه قائلة بهستريا مفاجئة :

- إيه ده ؟ قول لي بسرعة وحياتك إيه ده ! وحياتك بسرعة بسرعة بسرعة .

وقبل أن يفكر فيما يقول انخلعت عنه ، ناظرة إليه بشك متوحش :

- أوع يكون هوه ؟

وقبل أن يفتح فمه أردفت :

- أنا مش قلت ، أنا مش قلت ، اتفضل بقي ، أتفضل بقي ، أنا مش قلت .

وحقيقة لقد قالت وعارضت وكل ما حدث كان رغم قولها وإراداتها وبالتأكيد هي ألآن بسبيلها إلى إعادة ما قالته ، وعليه أن يتذرع بالصبر ويقول لها كلاما مطمئنا كثيرا .. إنها مجرد آهة ... آهة ستمر ، ويعود كل شيء إلى سابق عهده ...

أكان معقولا أن يعود أي شيء ليلتها إلى سابق عهده ؟ الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها .

وما فائدة الكلام ، والكلام الذي دار كثير ، وقد كان ممكنا ، مادام الوضع هكذا ، زوجة حلوة قوامها كقوام المانيكان ، وساقها حتى في الظلام يظهران من قميص النوم في إغراء لا جمهور له ، وحتى هناك تواليت وماكياج للنوم وعناية خاصة بالشعر ، ودهان مخصوص للبشرة وزوج هناك دائما بينه وبين لحظة النوم مشاكل لا بد لها من حل ، زوج امتلأت روحه بالتجاعيد مثلما فقد رأسه الكثير من الشعر وعيناه القدرة على الرؤية ... ما دام الوضع هكذا ، فقد كان ممكنا أن يدور الكلام نفسه وربما الألفاظ نفسها حول أي موضوع ، كالعادة ، لا تلتقي عنده وجهات النظر ، المهم أنهم أصبحا بشيء من التحدي ينتظران الصرخة الثالثة ، التي لن تجيء كما يؤكد الزوج والتي لا بد أن تأتي كما تصرخ الزوجة ومن المطبخ هذه المرة كان المصدر واضحا ولا شك في أمره ، انطلق مواء كمواء القطط ، يحاول صاحبه كبته وخنقه فيخرج مضغوطا ثاقبا إرادته فيبدو كما لو كان رجل قد قرر بجماع ما يمتلكه من قوة ويسبق إصرار ، أن يتأوه كما يريد ، ولتقم القيامة بعدها ، انطلق صفير معذب متألم متظلم باك غاضب كافر مستغيث بائس مؤلم زاهد ... آي ، آي . آي . آي طويلة وقصيرة ، ممدودة ومبتورة عاليه بكل قواه يرفعها ، منخفضة بجماع إرادته يخسفها ، مجروحة دامية ، لاسعة كالنار في العين ، كاوية كصبغة البود في الحلق ... حارق كآثار الحامض المركز .

فتحت الزوجة فمها تصرخ في هوس من تأكد قولها ، وانتظرت أن تنتهي الصرخة لتطلق صرختها هي ولكن انتظارها طال ، وبدأت رغما عنها تسمع ، ومن المذهول استمر فمها مفتوحا وأذناها بأمر قوة قاهرة تصغيان ، ثم بدأت ترتجف وتقترب من زوجها وتمسك بيده لتوقف الرجفة ، ونفس اللحظة التي كانت قد قررت فيها أن تطلق لفزعها العنان وتتغيث صارخة ، انتهت الصرخة فجأة ، وكأنما انكسر الجهاز الذي يصدرها .

وكان الصمت الذي حل تاما ساحرا كالدواء الشافي المعجز لو لم يحل ، وفي اللحظة التي جل فيها ، وعلى تلك الصورة الكاملة ، لفقد أحد أو الجميع عقولهم .

قالت الزوجة بعد جرعة صمت سخية ، كده يا حديدي .. كده ..

وأجاب بهمس مناه ألا يصدر : أرجوك يا عفت ... أرجوك ...

ولكنها لم تستجب ، بفحيح أكثر انخفاضا وإلحاحا سألته : بس أنا عايزه أعرف ... أرجوك أنت ... أنا ح أجنن عايزه أعرف ... ماوديتوش لوكاندة ليه .. ما سبتوش يتحرق مع أهله ليه ... عملت كده ليه أرجوك قولي بس ... عشان ما اجننش ...

كيف يخبرها نفسه لا يدري لماذا أقدم على ما أقدم عليه ، كان قد اتخذ قراره من زمن وكف تماما عن مساعدة أهل " زينين " وتوظيفهم والتدخل لقضاء المصالح أن أهل بلده هؤلاء لا يكاد يبرز من بينهم واحد حتى يتاسبقوا إلى جذبه إلى أسفل وإغراقه في حل مشاكلهم ، مشاكل لو تفرغ لها لاحتاج لأضعاف أضعاف عمره ، فلا يوجد إنسان إلا وله مشكلة حادة ملحة تطلب الحل وتستحثه ، ومائة ألف نسمة في زينين وما حولها بمائة ألف مشكلة ، بقرار حاسم باتر منه أن تبقي له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه وأن ينفض عن نفسه هذه الأيدي الكثيرة التي تريد إنزاله وجره إلى حيث هم وكأنما لا يطيقون رؤية البارز العالي ولا يسترحون حتى يبرك مثلهم ويعجز .

ولكن السكرتير جاءه قرب الظهر قائلا : إن أبا فهمي وعمه بالخارج وأنهما يريدان رؤيته ، وحياته ليس فيها إلا فهمي واحد , أول ، وربما آخر طفل أو إنسان يعترف الحديدي لنفسه إنه أذكى منه ، كان فهمي إذا وقف ليجيب وقد عجز الفصل عن الإجابة التفت الحديدي بكليته ناحية ، يتأمل ملامحه الشاحبة ، ووجهه الملئ بالعظام النائتة والذي تكسوه مع هذا غلالة من مهابة خفيفة ، مهابة التفوق أو العبقرية ، وكل كلمة ينطقها كان يتأملها وتبهره حتى الطريقة التي ينطقها بها ، فكل كلمة كانت الصواب بعينة ، كل كلمة بالضبط ما يجب أن يقال وما يعجز الجميع عن قوله ، فهمي كان يقولها ببساطة ودون أي جهد ، في ذلك الفصل من المدرسة الإلزامية ذي الجدران المتساقطة الطلاء الكاشفة عن الطين الذي بنيت به الحيطان ، الفصل ذي السبورة الكالحة البالغة الصغر وكأنما هي سبورة خاصة لتلميذ واحد ، المزدحم بعشرات الطواقي الصوف والبيضاء القطن وأحذية الإخوة الكبار أو ربما الآباء والقباقيب والحقائب القماشية التي صنعتها كل أم لابنها ، أو خبطت على المكنة فوق البيعة مع الجلابية ، الأيام الأولى التي كان الحديد يتعرف فيها على مدخل العالم المقروء المكتوب ويحاول أن يحذق مبادئ أسراره ، وفهمي رفيق تلك الأيام ومثلها الأعلى ... أيكون أهله هم من ينتظرونه بالخارج .

وأمر بدخولهم ...

ومن باب الحجرة دخل ثلاثة أو أربعة أناس من حجم قصير تخين واحد .. ورابعهم مثنى على نفسه لسبب مجهول . أجال بصره فيهم ، إن ملامح فهمي محفورة في ذاكرته لا تمحى أو تموت . ,أجال بصره محاولا أن يعثر على من يصلح ليكون أبا لفهمي أو عمه ... ولكن ملامحهم بدت غريبة حتى على أهل زينين بشكل عام ...

- أمال فين فهمي ؟

وتسابقوا في ارتباك عظيم يجيبون ، وينتهون إلى الإجمال على الإشارة للشخص الرابع المثني على نفسه .

- ده .

- أيوه يا بيه ...

- أنت ؟ ..

- أيوه يا بيه .. هو ...

- أيوه ... يا ...

ورفع رأسه يواجهه رغم بقائه متنبا . وحدق الحديدي طويلا فيه كمن يفتش في كومة من قش قديم عن إبرة ملامحه لطفل صديق كان أعز عليه من نفسه ...

- أنت فهمي ؟!

- أيوه .. يا .. فاندي ...

جاءه الجواب من وجه المومياء الخارجة لتوها من القبر أو المستعدة توا للدخول فيه . وجه منقبض بالألم وكأنما ثبتت ملامحه عنده وحنطت عليه ...

- أنت فهمي أبو ...

- أيوه ... أبو عنزه يا بيه .. ده كان مع في المدرسة ... بس حضرتك مش فاكر .

أمعقول هذا ؟ من الطفل المرتب النظيف الذي تحيط بوجهه مهابة النبوغ ، ومن العينين اللتين يطل منهما الذكاء النفاذ والقدرة المعجزة على الإدراك ، أين هذا من ذلك الرجل الذي يبدو عجوزا محطما تجاوز الخمسين ، المظلم القسمات كالأرض البور ، المطفا العينين لضيقهما كشريط اللمبة حين يحمر من تلقاء نفسه ويقصر ويحترق لدى فراغ الكيروسين .

وأحس بفجيعة ذات طعم خاص . كان دائما متأكدا أنه سيلقي فهمي يوما ما . وكان يعد العدة لهذا اللقاء الحافل . إن قدرا كبيرا من الرهبة التي يحسها لفهمي مبعثة أنه كان يتخيل دائما أن فهمي سيظل متفوقا عليه وعلى الآخرين . وأن الذي باستطاعته أن يتفوق كطفل لا بد باستطاعته أن يتفوق كشاب ثم كرجل .. ولم يكن أبدا يتصور أن اللقاء سيتم على هذه الصورة وأن الطفل الذي في ذاكرته سيمخض عن هذا الرجل .. كان يدخر اللحظة التي يقابله فيها كلاما كثيرا يريد قوله . وكيف أنه إذا كان قد أصبح الأستاذ الدكتور الحديدي أكبر مرجع في الكيمياء العضوية في الشرق وإذا كان قد أصبح رئيس مجلس إدارة مؤسسة كبرى ومرشحا أكثر من مرة للوزراة وعضوا في عشرات اللجان والهيئات العلمية في الشرق والغرب فجزء كبير من هذا الفضل يرجع لفهمي ، فقد كان الصوت الذي ظل لأكثر من ثلاثين عاما من الزمان يلهب طموحه ويدفعه للتفوق حتى ينتصر ، ولو مرة واحدة ، على الطفل العبقري الذي ظل يحافظ عليه في ذاكرته كصور القديسين التي لا تمس . وها هو اللقاء وها هو القديس .

- أن فهمي أبو عنزة ؟

- أيوه يا بيه .

- عنزة إيه يا بيه ؟

العنزة التي سرقها ليشتري لحسين أبو محمود والد منصور الألدغ حقن الدواء 606 التي قيل إنها بخمسين قرشا وأنها دواؤه الوحيد .. فقد كان فهمي شهما أيضا . لا يتردد في الذهاب سائرا على قدميه إلى البندر أو بقاء الليل بطوله ساهرا أو اليوم كله عاملا كادحا إذا أحس أن غيره في حاجة إلى هذا العمل أو الجهد خاصل جعلت الجميع يدهشون ويفجعون لإقدامه على سرقة العنزة ، وإن كان السبب قد عرف والعمل قد اغتفر ، إلا أنه خرج منها بالاسم لاصقا به ملغيا اسمه الحقيقي وحالا محله .

- أهلا وسهلا .. أيه خدمة

بالطبع فلا بد قد جاءوا مثلما كان يجيئه المئات في انتظار أن يحقق لهم بمفرده ومركز المعجزة كان سهلا تخمين المطلوب هذه المرة . فلا بد أن فهمي مريض ولا بد أنه يريدون إدخاله المستشفى .

وحاول أ، يتحدث إليه ويسأله عن مرضه متنيا على نفسه في جلسته لا يرفع رأسه ولا يبدو عليه أن يسمع ما يقال . وتهته أبوه وعمه وهم يعتذرون عن صمته وكيف أنه دائم الحدوث ، بل أحيانا تمضي عليه أيام كثيرة دون أن ينطق فيها بحرف . ولم يكن المرض في عقله أو نفسه وإنما كان في مثانته . فهم منهم أنها لا بد بلهارسيا أدت إلى سرطان في المثانة ، وأنهم لفوا وتعبوا على جميع (حكما) المركز ومستوصفاته ومستشفياته وحلاقي صحته والعرب الذين يكوون بالنار و (يخرمون) بالمسلة حتى قالوا لهم في مشتئفى المحافظة في النهاية بالأشعة في مصر ، وأدحنا جينالك يا بيه ربنا يخلي لك أولادك ويمتعك بالصحة .

ومن غير دعاء . كان قد قرر أن يتكفل بالأمر إن الدين الذي في عنقه للكتلة البشرية المنكفئة على نفسها أمامه ملفوفة بالملابس المهرأة كبير ولقد حان أوان رده وإيفائه .

كانت المشكلة أن يتخلص أولا من " الجماعة " التي ترافقه ويستصحبه إلى بيته ليقضي فيه الليلة وفي الصباح واعمادا على صديقه أستاذ الأشعة يدخله المستشفى . فقد كان عليه أن يدبر أمر ذهابه إلى البيت بطريقة لا تجرح ذكراه في نفسه من ناحية ولا يظن معها من ناحية أخرى بواب أو ساع أنه أخ له أو قريب . وكان عليه أن يتغلب على معارضة (عفت) زوجته التي لا بد سترفض إيواء شخص مثله ولو ليلة واحدة ولو لكي ينام في المطبخ أو في فراش السفرجي .

ولقد تم كل شيء كما قدر له الحديدي ... إلا معارضة الزوجة التي بقيت حتى بعد رضائها بوجوده في البيت وأمرها للسفرجي أن يتكفل به وبحراسته وإطعامه . وهكذا لكي يقلل به وبحراسته وإطعامه . وهكذا لكي يقلل من وقت وجودها بالشقة اقترح أن يذهبا إلى المسرح ، وحين عادا في منتصف الليل كان الهدوء المعتاد يهيم على البيت وكل شيء فيه هادئ ونور المطبخ مطفأ ، وبعد نصف ساعة كانت عفت تستمتع

بمراحل نومها الأولى وكان الحديدي مغمض العينين لا تزال بينه وبين النوم مشكلة مجلس الإدارة الذي أجلت حكاية فهمي من اجتماعه ومن المشهد العاصف الذي كان قد أعده لكي يسحب فيه البساط من تحت أقدام المدير العام ويجبره .. إما الظهور بمظهر الغبي الأحمق الجاهل إما ، حفظا لماء الوجه الاستقالة . حين جاءت الصرخة الأولى .

وأعقبتها الثانية والثالثة .

وتكهرب جو البيت تماما . أيكون قد تورط في خطأ أكبر دون أن يدري ، وظن أنه يأوي قطعة حديد خردة عزيزة لتأخذ طريقها في الصباح إلى الورشة فإذا بها قنبلة بدأت تنفجر وتوشك أن تهدم البيت !

وعلى عجل أسرع إلى المطبخ حافي القدمين . كان مظلما لا يزال ولكن رائحة خائفة حامضة قابضة نفاذة واجهته لدى فتح الباب . مد يده يضيء النور ولكن الشلل أصباها قبل أن تصل إلى المفتاح فقد انطلقت من المطبخ الضيق بآهة صارخة ثاقبة كعشرات من الأبر الحادة المسمومة انطلقت في كل اتجاه . لا يمكن أن يكون هذا صراخ ألم أو للتعبير عن ألم ، ولا مجرد أصوات . أنه شيء مادي ينخر في الجسد ويصيب السامع بالحمى ، فوق احتمال البشر.

أضاء النور وهو فعلا خائف . ولم يلمح فهمي في الحال فقد وجد الفراش الذي منحوه إياه ممزقا مكوما والمطبخ فقد وجد الفراش الذي منحوه إياه ممزقا مكوما ، والمطبخ بكل ما فيه مبعثرا وملوقا والمقشات متنزعا قشها وريشها ومنثورا ، وعددا لا يحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض وباب الثلاجة والمناضد البيضاء والرائحة النتنة الخائفة لا تزال هناك لكأنه كان ميدانا لمعركة حامية الوطيس دارت بين إنسان أعزل وخم جبار غير منظور ، لكأن الصرخات كانت صرخات رعب الإنسان من عدو خفي يسحقه بالضربات وهو عاجز محاصر متألم مهزوم لا حول له .

ونظر ثانية ألقاها على المطبخ بعيني الزوجة هذه المرة أدرك بعدها فاجعة لم يكن يتوقعها أبدا قد حلت . وبحث عن فهمي فوجده قد حشر لنفسه بين منضدتين من مناضد المطبخ عاريا تماما ليس عليه إلا فانلة مهراة ، رأسه يتحرك في كل اتجاه عيونه الميتة المطفأة تقدح بشرر أبيض دائبة الحركة في محجرها تبحث عن منقذ ومخلص ، وبكيانه كله كان يتجه إلى أعلى في بأس كامل كمن يدرك تماما أن لا تجاه . أنه ألم سرطان المثانية المروع حين يزحف مع الليل حين تبدأ قطرات البول تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذي نفذ إلى كل المسالك ، ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح ، يسحق بالألم الذي يصدره كائنا حيا في فخامة الفيل وبلاده إحساسه ويجعله يجثو ويحفر الأرض بأظلافه ويملا الدنيا بهتاف مروع صارخ .. إنه الألم الذي يسمونه فوق احتمال البشر . فهو لم يخلق لبشر ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة الدقيقة على الإحساس كي يتسحقها ويكوبها ألم كهذا الألم .

أخرج فهمي من مكانه ولا يزال رأسه وعيناه وكل كيانه في حالة تلفت مسعور وبحث عن مفر ، مشغول عنه وعن المكان والزمان والدنيا كلها بما هو حادث فيه وبداخله ، فيقف ويجثو ويتمدد على بطنه ويركع

ويقوم هالعا واقفا ويفتح فمه استعدادا للصرخة ، وحتى يكتمها ويحتملها يحشو فمه بذراعه أو بالمخدة أو المقشة ويغرز أسنانه فيها ويسيل الدم من الذراع ومن الفم . ومع نقاط البول الكاوي .

وشعر بضغط خانق يكتم أنفساه وبرغبة مجنونة أن ينطلق هادرا لاعنا نفسه وبلده وأناسها واليوم الأسود الذي كتب عليه فيه أن يولد منها ويصبح عليه أن يحيا عمره كله يحمل عن أناسها همهم وفقرهم وعجزهم ومرضهم وأخيرا آلامهم وبولهم ، ولكن ما الفائدة ومن يتلقى لعناته واحتياجاته إنه لا يستطيع حتى أن يطلب من فهمي أن يكف عن الصراه أو يرغمه على البقاء في ركن بعينه من المطبخ إلا إذا كان بأستطاعته أن يأمر الألم الذي في داخله أن يكف والشيطان الذي يمزق أحشاءه أن يهجع .

وسمع خطوات مترددة في الصالة ، ومخافة أن ترى الفاجعة الحادثة أطفا النور وأسرع عائدا إلى حجرة النوم ليجد عفت في منتصف المسافة .

- هيه .. عملت إيه ؟

- قلت له يسكت ...

- وإن ما سكتش ؟!

- حا يسكت ..

أي ياي ياي ياي ياي ياي

وأسرع خلفها إلى حجرة النوم التي فرت إليها مذعورة وما كادت الصرخة تنتهي حتى وقفت تواجهه وتهيئ نفسها للعاصفة المقبلة الهوجاء ولكنه أسرع ، واستطاع رغم دفعاتها وتملصها أن يحتويها بين ذراعية ، ويقاوم إحساسه بالرغبة الملحة في الانهيار ويعترف لها بصدق واضح وملموس أنه أخطأ وأنه ما كان يجب ، وأنه يطلب الصفح ، وأن يكون صفحها على هيئة مساعتدته في تدبير الحل للموقف فهما في قلب الأزمة معا ولا سبيل أمامها إلا الاحتمال . وما تنزلوش ينام تحت عند البواب ليه ؟ فضيحة والساعة إتين . أروح أنا عند ماما . دلوقتي ؟! أنا ما أقدرش استحمل . عشان خاطري . ما أقدرش ... أرجوكي .. غلطة وباعتذر عنها وبأرجوكي أنك تساعدينى وتستحملي ... استحمل إزاي يا رب .. استحمل إزاي ..

***

آي آي آي ي ي يا يا ياي

- أه يا مامي ما أقدرش على كده ما أقدرش

و و و و و ه يييييييــــــــــــــــه

- إيه ده ، ده مش بني آدم ، دول عفاريت ، دول جن ، ألحقيني يا ماما أنا ح أجنن .

وشيئا فشيئا بدأ الحديدي يحس أن ارتباطه بحجرة النوم وبالزوجة التي يحتضنها ويسكنها بالبيت والحاضر كله تضعف وبتواترته تتراخى وبواجدانه يستحيل إلى بحيرة هائلة مساء على استعداد لاستقبال أدق الرذاذ الصادر عن فهمي ..

فرتك مرتك شرتك دي دي دي دي دان

الألم لا بد قد إزداد بدرجة مخيفة . خفف عنه يا رب

واج الواج الواج الواج الواج

وإلى جوار هذه القادمة من المطبخ . جاءت أخرى رفيعة طفيلة من الحجرة المجاورة ما كادت تسمعها عفت حتى بقوة عاتية خارقة خلصت نفسه من تكتيفته وجرت خارجه إلى الغرفة الأخرى ، ولكن الطفل طفلها الوحيد قابلها قادما باكيا مناديا : يا مامي .. واحتضنته وحملته وبتنمر وتوهج قالت للزوج :

- سامع : أنت لازم تطرده حالا دلوقتي

يروح يشوف له مصيبة يبات فيها .. دا الولد قايم يرجف ... يا مصيبتي .

- يا عفت أرجوكي .. أنا شرحت لك الظروف - الراجل ده عندي مهم قوي وما أقدرش أطرده .

- مهم أكتر مني ومن فهمي ده .

- مش أكتر إنما مهم ، كفاية تعرفي أنني مسمي فهمي ابننا ده على اسمه .. ده الوحيد اللي خرجت به من طفولتي .

- يا ح تطرده يا ح أسيب لك البيت وأنزل .

- أنتي عايزة مني إيه .. أركع لك .. قلت لك أرجوكي .. أنا ح أجيب له دكتور يديله مخدر دلوقتي ويسكته وأنشغل بكليته في عملية استدعاء طبيب الإسعاف وانتظاره . ولم يدهش حين أخبره الطبيب أن المخدر في حالة كتلك ضعيف المفعول لا ينجح عادة في تسكين الألم فآلام هذا النوع من السرطان أقوى من المخدرات وكل المسكنات التي اخترعها الإنسان .

وكانت الفائدة الأهم للطبيب أنه أعطى الزوجة حقنة من عقار منوم. وبعد مدة قليلة نام فهمي الطفل في حضن أمه.

وأخيرا أصبح وحدة مع الصرخات القادمة من الأعماق وكما قال الطبيب لم يكن المخدر قد أحدث تأثيرا يذكر المشكلة الآن أن يعاد الاتصال... أن يعود إلى نفس الحالة الوجدانية التي كان عليها قبل أن يصحو الولد وتثور الزوجة أنه لا يعرفها ويذكرها وهي قريبة دانية منها وكلنها ترف وتذهب، يتذبذب بينها وبين حالتة العادية يه يه يه يه يه فمندا مندا مند هوندا بندا سارادات.

وأحس براحة باهتة وبالأصوات تصل إلى مكان سحيق داخلي فهي وتنعشه في رقة وعذوبة بالضبط هذا هو المكان هنا يحس بها تتجمع... آهاته التي لم يطلقها أي باي يانا يا بوي.

يا بوي موجوعة تأتي للحديدي بالضبط على الوجع. يابوي إنها ليست من لغة الحياة ولكنها من لغة الأعماق والآي إنه يحس بها تعبر عن وجعة هو منذ سنوات وسنوات وهو يريد أن يقف في ميدان التحرير ويستجمع شجاعته. وبكل قوة وبالحر ما يستطيع يطلقها عالية موجودة صادرة رأسا من الوجع مثلما يفعل فهمي الآن ولكنه في اللحظة الأخيرة يعدل ويضعف ويخاف أن يفر منه الناس ويتهمون بالجنون فيخمدها ويكبتها ويردها إلى حيث ترقد الكثيرات من زميلاتها المكبوتات المحبوسات.

آي آي آي فركش أن منكش أي بعقش أي...

الآن فقط يحس بها كلها. آلامه. ويحس بها أبشع حتى من آلام فهمي وأوجاعه.. كل الفرق أنه ليس له الحق في التوجع مثل لن يصدقه أحد إذا صرخ وترك أعماقه تعبر عن نفسها المكتومة الوارمة المضغوطة ألم بلا آهات أضعاف أضعاف الآلم. الآن وهو مع وحيد مع نفسه

وموجوع مثله وأعماقه مفتحة الأبواب أمامه يستطيع أن يسأل نفسه: ماذا يؤلمه؟ إنه فوق القمة كل الخط العريض الذي رسمه لحياته تحقق زوج ورب أسرة وسعيد مخوط بالرعاية والحب والاحترام أن يكون فمن أين تجيئه الآلام التي لا تطاق حتى أنه ليحسد فهمي على حالته.

ترى ماذا كان يفعل ويشعر لو حدث له ما حدث لفهمي وبدلا من التعليم المتواصل الذي هيأه له أبوه الصراف الذي كانوا يتندرون عليه ويسألونك وأنت ذاهب لتدفع المال مال الحكومة واللامال الصراف. بدلا من هذا أخرجه أبوه من المدرسة واشتغل فلاحا كان هذا مصيره أي إنسان في مكانه لابد أن كان يقبل يده ظاهرا وباطنا أين هو وأين فهمي؟ هو الذي لابد تختاره إذا طلب إليك أن تختار مائة يمثلون الصفوة في هذا البلد. المتمتع بكامل صحته وحياته لا حق من حقوقه مهضوم ولا شعرة ظلم تمسه أو تمس مركزه أين هو من إنسان كفهمي تكفل الفقر بالقضاء على عقله وأحالة إلى واحد آخر من ملايين الفلاحين السذج. وتكلت البهارسيا بالقضاء على جسده... فالمفروض أنه الآن ميت وعمره مسألة أيام وحياته كانت أبأس حياة وشقاؤه كان من نوع يضرب به المثل... لو كان قد حدث له هذا... تراه ماذا كان يقول عن "ألمه" المزعوم وأوجاعه؟

قال الحديدي لنفسه بلا تردد: كنت أكون أسعد.

كيف؟ المسألة ليست فقرا وغني أو تعليما وجهلا السؤال هو؟: هل أنت حي أم ميت؟ فهمي رغم كل شيء حي وعاش أما أنا فلم أحي والحياة أي حياة أروع ملايين المرات من الموت أي موت حتى لو كان الميت مكفنا في ملابس أنيقة محتلا أرقى المناصب سعيدا في حياته الزوجية.

ولكنك حي. أنا ميت إنه ليس تلاعبا بالألفاظ إنها حقيقة المقياس الوحيد للحياة أن تشعر بها وأنا لم أشعر ولا أشعر بها إنني أقضي حياتي كعملية حسابية دقيقة هدفها الوصول... وحين أصل لا أسعد لأن أمامي يكون ثمة وصول آخر.

إن فهمي قد عاني من الفقر والبؤس ولكنه كان يعمل مع الرجال ويضحكون سويا ويتشاورون في مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم إلى السوق يفرحون لعود الفجل إذا أضيف إلى الأكلة ولا أحد منهم يأكل بمفرده إذ الطعام ليس أن تجوع وتملأ بطنك... الأكل عندهم أن يحل موعد الطعام ويلتفون حوله في ترحيب ويتعازمون ويهزرون ويحسون أنهم يقومون باحتفال إنساني صغير. أنهم يفعلون هذا دون إدراك لكنه ولكنههم به. بهذه الأشياء الصغيرة المتناثرة في طريق حياتهم يمتلئ كل منهم بإحساس يومي متجدد إنه حي وأن الحياة مهما صعبت حلوة.

أنا قضيت حياتي أجري وألهث لكي أصل إلى القمة كما تسمى... كان على أن أظل أصعد ولهذا كنت أصادق أو تضمني المجموعة لا لكي أستمتع بصداقتي ورفاقيتي لها وإنما على أساس سرعتها وعلى اعتبار أنها أسرع من المجموعة التي هجرتها وأظل سائرا معهم ما داموا يسيرون بنفس السرعة التي أريدها حتى إذا أحسست أنني بحاجة إلى سرعة أكبر هجرتهم إلى مجموعة أخرى. أو سرت بمفردي كي لا يعوقني معوق. وما توقفت مرة كي أواسي مختلفا أو أخذ بيد أعرج معتبرا أن ليس الذنب ذنبي أنه تخلف أو أنه خلق أعرج ولقد ظللت أسرع وأسرع لكي أبدأ الحياة حين أصل ولكن لم يكن للوصول نهاية بعد التخرج قلت العمل. بعد العمل الدكتوراه بعدها أستاذية وحين أحسست أنها تستلزم الانتظار هجرتها إلى الشركات قلت.. بعد الزواج وحين تزوجت قلت.. نبدأ الحياة مع الأولاد وحين خلفت قلت الأوفق حين يكبرون وها أنذا لا أزال أجري مسرعا وقد أصب هدفي ليس الوصول إلى أي شيء وإنما الإسراع في حد ذاته تماما مثل الذي يبدأ حياته بتوفير النفود كي يحسن مركزه المالى ويبدأ حييا بعد الألف الأولى وحين يصل إلى الأولى يصبح هدفه الثانية فالثالثة إلى أن ينسى الهدف تماما ويتحول إلى بخيل مقتر هدفه جمع المال ليس إلا.

ياني ياني ياني ياني يا بوي.

أحس بتوجع فهمي يريحه راحة بدأت تصبح عظمى وكأن فهمي يتوجع لكيهما أو أكثر من هذا كأنه هو الذي أتيح له أخيرا أن يتوجع كما يريد وبكل قدرة استطاعته إنه الألم المتراكم عبر السنين ألم الحزم الدفين والاكتئاب إن الإنسان جهز بتركيبه وأحساسيسه لحياة خاصة تسمى الحياة الجديرة بالإنسان وهو لا يستطيع أن يخرج عليها ويحياه حياة من صنعة هو ومن ابتكاره إلا وهو يتألم وآلامه تتضاعف ولدق قسما العرم كله على طبيعته وكتم نداءات الأعماق المطالبة بمتع الحياة الصغيرة الكثيرة العادية التي تعطيها طعم الحياة قسا عليها ليجبرها على أن تحيا بمفردها.

أبو... أموا... أبو... أموا... واه...

بالضبط يا فهمي الوحدة للوصول. الوحدة للسرعة الآلم البشع لفراق الناس والبعد عنهم... الوحدة القاتلة التي تربي الخوف من الآخرين وتدمر الثقة بالنفس، الوحدة لكي تكون

حرا أكثر ومنطلقا أكثر وحيا أكثر التقوقع فإذا بها تؤدي إلى التوقع والرعب من الآخرين وتحديد الحركة وإحاطتها بعشرات القيود. همه يحمله وحده ومرضه ينفرد به. وضيقه هو المسؤول الوحيد عنه. الألم. أضعاف أضعاف الألم الذي يسحق فهيم ويدمره وهو مرغم على كتمانه يخاف خوف الموت أن يطلع عليه أحد فإن تألم الرجل أو حاجته للفضفضة إلى الآخرين ضعف وعورة.

دي دي دي دي دي دي .....

يااللمضحك... إنه يحس أنه ربما لأول مرة يذكرها في حياته... سعيد. سعيد إلى درجة حقيقة متأثر لأوجاع فهمي ولكن فرحته هو لهذه اللحظة التي يحياها أجل ربما أول لحظة يحياها لا توصف. ومن الصعب أن يدرك الأسباب ولكن لابد أن أهمها أنه أخيرا استطاع بوسيلة معقدة مركبة تعتمد على أعماق تخاطب أعماقا خلال لغة غير مفهومة أخيرا استطاع أن يتصل. وأن يشارك وأن يزاول عملا من أعمال الأحياء يزاوله بمتعة وسعادة سعادة تدخله في حالة وجدانية لها صفاء لحظة الكشف لدى المتصوفين وعمق لحظة الخلق لدى العباقرة لحظة ها هو يحس فيها أنه قادر على الاتصال بكل إنسان وبكل شيء بل قادرا على الاتصال بنفسه وبالتحديق مليا في أعماقه دون أن يرده الرعب المقيم مما قد يراه.

وكلما اندمج في حالته الوجدانية تلك أحس بنفسه تتفتح أكثر وتعمق وتتقوي صلته بفهمي حتى لكأنه يقرأ ما يجأر به في كتاب مفتوح وأحس أيضا أنه ينجذب إلى مكانه ليصبح أقرب انجذابا مريحا ممتعا إلى درجة لم يدرك معها أنه كان قد غادر الفراش ومضى يعبر الصالة في عدد كبير من محطات الممشى الضيقة. كل خطوة بمحطة سمع كالصوت البعيد يأتي للنائم نافذة جار تفتح ويعقبها صوت زعيق ولابد.

إنه كلمات سباب سمعها وكأنها لا تمت إليه ولا تهمه إنه يرى حياته الآن بكل كبيرة وصغيرة حدثت فيها ولها مجسدة مجموعة أمامه بحيث بنظرة واحدة يستطيع أن يرى نفسه تقريبا من يوم ميلاده إلى يومه هذا....

الغريب أنه ينظر إليها وكأنه حياة غريبة عنه لا تربطه بها أو بصاحبها أدنى علاقة لا تربطه ذكرى بأي جزء فيها أو موقعة وأغلب الظن أنه لا يذكرها أنه لا يكره شيئا في الدنيا قدر كراهيته لحياته تلك أنه يمقتها ولولا النداء القوي الصادر له من فهمي لحملها في التو وقضى عليها وعلى نفسه ولكن النداء أقوى أنه يتسرب إلى كيانه كله ويهز هيكل الحياة فيه ليوقظ حبه الغريزي لها. ومن الظلام الكثير الرابض يملأ الصورة تبدأ تتسرب موجات كاشفة مضيئة يجسر معها على التحديق والرؤية ليتابع نفسه وهو يجري ويجري وحده الناس تحيا وهو يجري والشاشة مليئة بالصلات المقطعة بالصداقات المبتورة بأجزاء العلاقات بقيم على الطريق مهدرة بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الارتباط ولا أن ينتمي لجماعة أو حتى لصديق لأن في الانتماء فقدانا لذاته الحرة وكيانه، والنتيجة جري سريع إلى قمة الوصول

هو في الحقيقة هرب سريع من الحياة فالحياة هي الأحياء وأن تنفصل عن الأحياء معنا انفصال عن منبع الحياة الأصيل وفقدان طعمها ونوعيتها والتحول إلى الموت. الخطأ الفادح الذي يدركه الآن وعلى الضوء الباهر الصادر من أعماق فهمي إلى أعماقه يراه أن الوصول لا قيمة له بالمرة إذا وصلت وحدك أية قيمة أن تصبح ملكا متوجا أو عالما حاصلا على جائزة نوبل وأنت محاط بصحراء جرداء أية قيمة لأي شيء في الدنيا للمتعة نفسها أن تحس بها وحدك؟

وصحيح أنه ليس وحده فهناك زوجته وابنة وأقرباؤه وأخوته وبعض الأصدقاء ولكنها ديكورات علاقات ليس إلا... إن حب الناس للناس وارتباط الناس بالناس لا ينشأ للزينة وإنما ينشأ لحاجة الناس للناس الحاجة الماسة الملحة كحاجتك إلى الماء والهواء والتي بدونها لا تستطيع أن تعيش وهو له أخوة وزوجة وأناس ولكنهم لا يمثلون مطلبا حيويا بالنسبة إليه أن في استطاعته إذا أراد أن يحيا كما تعود بدونهم قد يكونون هم في حاجة إليه... ولكنه هو ليس في حاجة لأحد أو بالاصح هو في حاجة حيوية مساة، ولكنه يحس ويوهم نفسه مثلما أوهمها طول عمره أنه ليس بحاجة اليهم ومن هنا ينشأ ألمه البشع.. من هنا بدأ ويستشري السرطان الذي يقتل الضحكة على فمه لأنه يحس أنه ليس بحاجة إلى الضحك ويجمد العواطف في صدره لأنه يحس ليس بحاجة إلى أن يعطي الحب أو يستقبله من هنا تبدأ المأساة التي أحالته إلى ميت حي.

وجاءته صرخات فهمي قريبة هذه المرة إذ كان قد وصل إلى المطبخ وجلس بجواره جاءته بعد سكوت خيل إليه أنه طويل وكان مجرد إحساس فهمي بوجوده بجواره خفف عنه الألم.. جاءته الصرخات، أقرب ما تكون إلى البكاء وأحس بنفسه وكأن بركانا باكيا يوشك أن ينفجر أنه لم يبك في حياته منذ أن كان طفلا وها هو يحس أنه يود لو ظل يبكي إلى أن توافيه المنية إشفاقا على نفسه وهو أول من أدرك أنها أكثر أهل الأرض جميعا حاجة إلى الشفقة...

هات يدك يا فهمي ضعها هنا على صدري إنه خاو كما ترى أنا أعرف أنك مريض وأحس بك وأريد أن أقاسمك الألم ولكن لا أستطيع فقلبي من خشب، تركتكم جميعا أنت في زينين وسعد في بنها وعبد المحسن في أسيوط وشلة الجامعة وجمعية الكتاب. وكل الناس وظننت أنكم تسيرون في الطريق العادي طريق الندامة ... وأن الطريق الأسرع طريق السلامة هو الطريق ... والنتيجة أني مت من زمن وظللتم أنتم أحياء أنا جثة أقنع نفسي أنني أنا الذي أزور عن الناس في حين أنهم هم الذي ينزورون عني وما حاجتهم إلى جثة حتى زوجتي وابني أحس أنهما لا يطيقان رائحتي... أنا أريد العودة يا فهمي أريد البداية من جديد أطلب فرصة أخرى فمن يقبلني يا فهمي؟ من يقبل جثة من يرضى بي إني لا أجد في هذه اللحظة سواك يا فهمي هل تقبلني... هل تقبلني يا فهمي!!

- ما تعيطش يا محمود..

ولم يصبه الذهول مع أن القائل كان فهمي. وكان أول كلمات ينطقها ولم يعجب أيضا لأنه ناداه بمحمود. وكأنما ذكره الاسم بالتختة المشتركة وبأيام زمان كل ما أحس به أن رجاه قد تحقق. وأنه يقول:

- أشكرك يا فهمي... أشكرك..

وانبطح الحديدي ببجامته على بلاط المطبخ وتناول يد فهمي يقبلها ومسح بها دموعه السائلة التي لا تتوقف وهو يردد سامحني يا فهمي... سامحوني يا ناس أنا غلطت وتعبت والألم فاض بي... سامحني يا فهمي.

ولكن فهمي كان قد عاد بآخر وأقوى ما عنده، يصرخ وىلامه قد اشتدت بغتة... وكانت توافذ البيت جمعيها قد فتحت من زمن وسكانها يصيحون رغم أنوفه للآهات المستغيثة.. ويستجيرون من الصوت الذي لا يرحم أبوابهم ونافذهم مهما أغلقوا وأحكموا الإغلاق الصوت الذي أيقظ العمارة ببوابيها وبهواتها وسادتها وداداتها وبدأ يصل إلى العمارات المجاورة ويوقظ سكانها، ولو استمرت الصرخات لربما كانت قد أيقظت الحي الراقي بأكمله، ومن يدري بما المدينة كلها كانت قد صحت... ولكنهم كانوا قد طلبوا بوليس النجدة... وحضر وفتحت له الزوجة نصف نائمة غير أنها استيقظت تماما حين قادتهم إلى المطبخ ووجدتت الحديدي راكعا على الأرض يقبل يد فهمي ويتسغفره...

ورفعوا فهمي وألبسوه وحاول جنديان حمله فيما بينهما ولكن الحديدي نهرهما، وتقدم هو من فهمي وحمله على كتفه والمرض قد التهم لحمه ولم تبق له سوى العظام، وتشبثت عفت بزوجها سائلة إياه عما يفعله بنفسه إلى أين ذاهب؟ وابتسم لها وأضاء وجهة كما تتعود بالابتسامة وقال: رايح في طريق تاني صعب شديد... تيجي معايا؟!

- أنا مارحش وياك بالشكل ده.. أنت اجننت؟

وأحاطت فهمي الصغير بيدها بينما استدار الحديدي بحملة الصارخ المولول ومضى يتقدم الموكب، ونظرات السكان وأهل الحي تتبعه وتحيط به تهمس وتسري بينها الهمسات الضاحكة ... لقد عاش في الحي سنتين مرعوبا أن يكتشف أحد أصله وفصله وتبدو للأعين النائمة شعره واحدة تكشف عن الجذور والسيقان التي يمت إليها... ولا ريب أن كثيرين من سكان الحي كانوا يفعلون مثلة فها هو يرى النافذ والمدخل حافلة بكثير من الجثث... وهو الآن يستعجل اللحظات التي يغادر فيها الحي... وقد أصبحت الرائحة لا تطاق.

يوسف إدريس
قصة

مشوار

كانت "مصر" إذا جاءت سيرتها في حديث عابر يرتج على الشبراويز ويرى أنه غير عائش ويتحسر على ساعة واحدة يقضيها في القبيسي أو عند المعلم أحمد في الترجمان ويجتر شوقه إلى حفلة من حفلات النهار في السينما الأهلي ويرتد عقله بسرعة إلى الأيام الخوالى التي قضاها في الجيش حيث كان يذرع مصر من مشرقها إلى مغربها كل أسبوع..

وغالبا ما كان ينهي الشبراوي لفهته وحسرته وشوقه بأمنية ليس كثيرا على الله أن يحققها فيهيئ له ظرفا مناسبا وقرشين حتى يشد الرحال إليها ويستعيد يوما من أيامه.

وأصبحت الجملة التي يعرفه بها زملاؤه من كثرة ترديده لها:

- أبيع عمري على ساعة فيكي يا مصر...

ولكنه لم يضطر إلى بيع عمره فقد أتى الفرج من حيث لا يدري ومن باب لم يعمل له حسابا قط. فهو جالس في المركز جلسته منذ أربع سنوات وإذا بجماعة حافلة تدخل وبعد سؤال وضجيج اتضح أنها امرأة مجنونة من كفر جمعة ومعها أهلها وأقارب الأهل والجيران وملأ الصراخ المكان فالتمت الناس وضاق المركز.

ودق قلب الشبراوي في أمل بين ضلوعه فلا مناص من إرسال المرأة إلى مستشفى الأمراض العقلية في مصر مع (مخصوص) ومن غيره ينفع أجدع مخصوص؟...

ولم تكن ثمة حاجة إلى وساطات أو شفاعات للمعاون فقد تنصل كل العساكر من المهمة ومن مسؤوليتها. وحين تقدم هو إلى المعاون طائعا مختارا انتهى الأمر.

وفي الحال أرسل الواد عنتر صبي البوفيه إلى امرأته يخبرها بسفره وبأن تجهز له لقمة في منديل. وترسل الخمسين قرشا الصحيحة بأمارة ما هي موضوعة في كيس المخدة.

ومضى نصف ساعة...

وأصبح كل شيء جاهزا وخطاب مفتش الصحة معدا. واستمارات السفر مكتوبة وليس باقيا إلا أن يضع رجله في القطار يكون بعد ساعات في قلب مصر.

ولم يكن هينا أن يصدق الشبراوي أن ما حدث كان حقيقة. وأن الأمر انتهى هكذا بسهولة ونعومة. وأنه صحيح سيري مصر مرة أخرى. ويتفسح فيها. ويركب الترام ويقابل الإخوان والأصحاب ويتعشى نيفة عند المعلم حنفي.

لم يكن ذلك هينا ولكنه مضى بخطوات تضطرب بفرحة لا يصدقها إلى المحطة ومعه يا يزيد على المائة نفر وكلهم يوصونه بزبيدة وبأن يكون صبورا معها.

وغمزة أبوهابريال وأعطاه زوجها بريزة وهز الشبراوي رأسه كثيرا وابتسم باستمرار وهو يؤكد لهم أنها في عينيه وأن يطمئنوا عليها ويعتبروه أخاها من أمها وأبيها.

وكان الموكب وهو يخترق البلدة يسترعى انتباه الناس ويجدون الشبراوي على رأسه فيسأله الذين يعرفونه أين هو ذاهب، وكان يجيب في توضع .

- لحد هنا...

فيعود السائل يتمحك:

- لحد فين..

فيجيب الشبراوي وهو يزيد من قلة اهتمامه

- كده لحد مصر..

وكثيرا منا كان يأتيه الجواب:

هنيالك يا عم..

وتنمل السعادة في أحشاء الشبراوي..

وبعد انتظار كثير جاء قطار الدلتا. وركب هو وزبيدة وجلست هادئة ساكنة وتحرك القطار في أمان الله.

وتحسس الشبراوي الأوراق للمرة الثالثة وقد وضعها بعناية في جيبة الداخلي ولما رأى أن لا متاعب هناك وأن الحال مثل القشطة فك حزامه البوليسي العريض. واستراح وكاد ينسى زبيدة.

وانتهى قطار الدلتا من ركناته وسرحاته ومحطاته التي لا تفرغ ثم دخل المنصورة كالدودة السوداء الطويلة وعبر الشبراوي الكوبري وزبيدة في يده. وهو لا يني عن ترديد:

- بركاتك يا سيدة زينب..

وسأل عن قطار مصر فوجده رابضا ينتظره وركب وأجلس زبيدة بجوار النافذة وجاء بائع الليمون فشرب منه كوبتين في نفس واحد ومد الثالثة إلى زبيدة لكنها دفعتها في تبرم وحنق وهدهد عليها وهو يتبع الكوبة زميلتيها.

وتحرك القطار والناس فيه آمنون مطمئنون وزبيدة تنظر من الشباك كالطفلة الصغيرة وعلى فمها ابتسامة نيئة والشبراوي تطقق له السعادة أصابعه.

وقبل السنبلاوين استدارا زبيدة فجأة ثم دبت على صدرها في عنف وقالت وهي تنظر إليه في اتهام غريب.

- يا لهوي.

ونزل الشبراوي مهرولا من حنات سعادته ورد عليها في انفعال:

- مالك يا ختي مالك يا زبيدة.

ولم تجبه وإنما وضعت كفتها تحت أنفها وبأقصى قوتها أطلقت زغرودة خالية من كل هم.

وأعقبتها بشرب طويل من الزغاريد.

والتفت الركاب إليها وصمتت العربة كلها في دهشة عظمى وتحلحل الشبراوي وداخ قليلا فلم ينطق بحرف.

وبعد أن حاول ابتلاع ريقه فلم يجد له ريقا طبطب على زبيدة ومعلش يا ختي حقك على طولي بالك أعملي معروف بلاش فضائح وكلمني من كلماته الهادئة وسكتت زبيدة.

ولكن الركاب لم يسكتوا بل انطلقت ألسنتهم تعلق همسا على ما حدث ثم ارتفعت الأصوات. كل هذا والعيون لا تتحول عنه أو عنها.

وسمع بأذنه واحدة تقول:

- دي لازم مراته يا ضنايا.

ورنت ضحكة في آخر العربية وتنحنح الرجل الجالس أمامه وهو يفيق من غفوته ووقف طفلان فوق المقاعد يتفرجان..

وعرق الشبراوي حتى نفذ العرق إلى بذلته الصفراء ومد يده ولم المنديل الذي كان قد فرده ليغير ريقه. ثم عقده كما كان.

وسأله جار لم يعجبه الحال:

- هي الست مالها يا شاويش؟

وقال الشبراوي وقد استرد لسانه وإن لم يسترد مفاصله:

- أبداً.. ولا حاجة...

وسكلت قليلا ثم أضاف:

- أصلها.

وضم أصابع يمناه ثم حركها في دائرة بجوار رأسه. وهز الرجل جسده كله يؤمن على ما قال الشبراوي وكأنه قد اكتشف شيئا عويضا.

ولم يكن الشبراوي قد كف عن تحريك يده حين استدارت إليه زبيدة وتكلمت بأعلى صوتها ومعالمها مدببة مشحوذة:

- ولا حاجة إزاى... إزاى يا جدع ولا حاجة..

ونظر الشبراوي إليها في جزع حقيقي وهي تقترب بخلفتها من وجهة وتراجع برأسه حتى ألصقها بخشب العربية واضعا المنديل بما فيه بينه وبينها.

ولكنها أنهت اقترابها منه فجأة وانتصبت واقفة ثم فتشت سقف العربة بعينين زائغتين وزعقت بكل ما تستطيع:

- ولا حاجة إزاي.. يسقط عمدة بلدنا إبراهيم أبو شعلان.. يسقط عمدة بلدنا... يعيش جلالة الملك.. يعيش جلالة الملك الريس محمد بيه أبو بطة وطقت زغرودة فائرة...

ووقفت العربة على رجل وطار النوم من عيون النائمين وأخذ الرجل الجالس أمامه المقطف من تحت المقعد ثم مضى مسرعا. وفي ثانية أصبح لزبيدة والشبراوي نصف العربة، بينما انزوى كل الركاب في النصف الآخر متوجسين شرا.

وغادر العربة نفر قليل من المسافرين بينما أبقي حب الاستطلاع معظمهم.

وأصبحت بدلة الشبراوي كالمغسولة بعرقه ومد يده يرغم زبيدة على الجلوس وينهي الموقف ولكنها خبطته على يده وتأودت وهي تزغرد وتقول:

- يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك الريس أبو بطة.

وانطلقت ضحكات بائعي الكازوزة والفول السوداني. وجرت وراءها ضحكات المسافرين. ولم يجد الشبراوي مانعا من ضحكة هو الآخر ولكنه لم يضحك طويلا. فقد فوجئ بالمسألة تنقلب جدا ولا هزل فيه وروعه من زبيدة أنها مدت يدها. ورفعت ذيل ثوبها تريد أن تخلعه. وكانت ترتدي ثوبها فقط وهجم عليها يوقفها ودفعته وهي تزغرد وقامت معركة.

ولو أنه تغلب عليها آخر الأمر فأقعدها بالقوة وربطها بكوفيه تبرع بها واحد من المسافرين. مع هذا إلا أنها كانت قد فعلت شيئا أفقده صوابه، فقد قذفت بطرطوشة من نافذة القطار. الطربوش الذي ظل فوق رأسه من يوم أن دخل الخدمة، وبقيت فورته عارية بيضاء إلا من شعره القليل القصير.

ولم تهدأ زبيدة حتى بعد أن فعلت هذا وظلت تطلق الزغاريد وفي كل مرة بسقط العمدة ويعيش الريس.

وقرابة بلبيس كان الهدوء قد أخذ طريقه إلى عقلها وسكنت حتى بدأ بعض الجريئين من الركاب يعودون إلى أماكنهم وكان الشبراوي يمنع نفسه منعا عن قذفها من القطار فقد كان يغلي على طربوشه الذي ضاع أمام عينيه.

واستمر يغلي حتى دخل القطار محطة مصر...

وانتظر الشبراوي حتى نزل كل الناس ثم شدها بعنف/ ولف ذراعه حول ذراعها وجعلها لاصقة بها كالكماشة، ولكنها لم تكن في حاجة إلى كل هذه الشدة فإنها كانت تمشي معه كالحرير المطاوع.

وبهره ميدان المحطة، ولكن الظروف لم تكن متاحة أمام الذكريات لتشغل باله.

وعلى الفور ركب الترام وهي معه أعقل ما تكون، ونزل في العتبة، وخرم على شارع الأزهر واشترى طربوشا بالريال وهو يلعن زبيدة وأباها وفلوسه الحرام.

ولم يسترح إلى الطروبش الجديد فوق رأسه وأحس أنه ثقيل كقطعة الدبش.

وعقد العزم على أن يجعل زبيدة تغور من وجهه أولا. ويتخلص من مسؤوليتها ثم بعد ذلك تكون مصر كلها له وهو لها. استراح لهذا القرار وركب الترام والناس فيه فوق بعضهم، وغرق يراجع ما فات من متاعبه وما سيجيء ولكنه صحا في نصف الطريق يطمئن على زبيدة فوجدها لاصقة بأفندي من الراكبين وفكها تدلي في بلاهة راضية والأفندي منسجم غاية ما يكون الانسجام. ومتشاغل بقراءة جريدة يحملها. وزغدها الشبراوي وهو يشدها بعيدا. وانقلب الرضا الذي على وجهها غضبا وزغردت وسقط العمدة وعاش الريس أبو بطة.

وأوقف الكمساري الترام بلا محطة وأنزل الشبراوي وهو يشبعه لوما وتريقه وتقريعا على ركوبه ومعه واحدة لها هذه الخطورة.

ووجد الشبراوي أنه من المستحسن أن يأخذها كعابي إلى المحافظة ومشت زبيدة على يمينه وقد صممت ألا تكف عن زغردتها. التأم شارع محمد على كله وراءهما وبجوارهما. وكلما كثر الناس علا صوت زبيدة. بينما راح الشبراوي في غيبوبة ووجهه لا يرتفع عن الأرض.

ورأى العسكري الواقف أمام باب المحافظة هذا الجمع مقبلا وفيه زغاريد وأصوات فتوقع حدثا مثيرا.. ووقف الشبراوي يسأله عن طبيب المحافظة. وعرف العسكري الحكاية بخبرته ورثى له فالساعة كانت قد جاوزت السادسة ولا أحد هناك.

وسأله الشبراوي بلهفة:

- طيب وبعدين؟..

- فقال العسكري بكل هدوء؟..

- تعال بكره..

- بكره؟... بكره إزاي؟...

- بكره الصبح...

ثم أعقب العسكري جوابه بشخطة فرقت الناس وفي جعبتهم أكثر من نادرة.

وتوسل إليه الشبراوي وهو يسأل إن كان ممكنا تركها إلى الصباح في المحافظة.

وحدجه العسكري بعينيه دون أن يتكلم. وفهم الشبراوي فسحب زبيدة ومضي. ومن هذه اللحظة بدأ يطرق عقلة طرف المشكلة. وبدأ يفكر كيف يبيت ومعه هذه الداهية. ولكنه كان متعبا مهدودا، وله ساعات لم يدخل جوفه طعام.

ودخل أقرب قهوة في باب الخلق حيث جلس وأجلسها بجانبه وكتفه في كتفها. ولم يعبأ أبدا بتحديق الجالسين فيه وفيها ولا بما يقولون. وطلب شايا وتعميرة وشربهما وأحس بالخدر يتمشي لذيذا في جسده. وأفاق من خدره على شيء حدث داخله فجعله يتململ ويرتد إلى أقصى الخلف ثم يتلوى إلى أقصى الى الأمام وقدر أنه لن يستطيع الاحتمال وعليه أن يبحث في التو عن المكان الذي يقضي حوائج الناس وسأل الجرسون وعلى وجهه ألم، وأشار الرجل إلى مكن لا يبعد كثيرا.

ولكن ... زبيدة...

وتلفت حوله، ولم يكن صعبا أن يبدأ حديثا سريعا مع جاره الذي كان يرتدي بالطو وجلبابا بلديا. وعرف منه أنه مخبر في المحافظة واضطر الشبراوي أن يقص الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم وأن يختمها

راجيا المخبر أن يأخذ باله من زبيدة حتى يعمل مثل الناس ويعود. وما كادالرجل يقبل بغير ترحيب حى اندفع الشبراوي وكأنه طلقة..

وحين عاد كانت القهوة قد انقلبت إلى مولد تحييه زبيدة.

وجرها الشبراوي في غلظة بعد أن ألح في الاعتذار للمخبر ومشى وهو لا يدري أين يذهب. وكان الوقت يمضى والشمس غابت. والأضواء القوية تزغلل عينيه محاولة تذكيره بالذي مضى.. ولكنه كان في عالم آخر.

وظل يبحث في ذاكرته حتى عثر على قريب له من بعيد طالب في الزراعة في الجامعة. وعثر أيضا في ذاكرته على مكان بيته.

وتاه في الجيزة ساعات فقد كان يعرف البيت في النهار فقط.

وأخيرا استدل عليه. ودق الباب وفتح قريبة: وسلم عليه بحرارة. وأنت فين يا أخي. والله زمان. وإزاي الجماعة.

وقبل أن يدخل في الموضوع زغردت زبيدة بحماس وكانت ما فتحت فمها طول الوقت.

ونظر إليها الشبراوي وتمني لو كان معه سكين ليذبحها.

ولم يدخل في الموضوع أبدا. وإنما انسحب في سكون وهو يروي لقريبه نتفا متفرقة من الحكاية.

وحين احتواه الشارع قال لزبيدة وهو يضغط على ذراعها يريد كسرها:

- حاتسكتي واللا أروح فيكي مؤبد.

واستمر يهدد ويتوعد وهي ماشيه بجواره كالأوزة لا تلوي وزي ما تيجي...

وذكره المؤبد الذي يريد الرواح إليه بالقسم. ووجده حقا أصلح مكان يأويها ويأويه في تلك الليلة السوداء.

والأوتوبيس. وفي خطوتين كان أمام الشاويش النبطشي في قسم السيدة.

والحكاية أعادها وقد تمرن عليها وحبكها...

وهز الشاويش رأسه في بطء وهو يقول:

- دى مسؤولية يا حبيبي.. وأنت سيد العارفين.

ورد الشبراوي وغيظه يحترق:

- طب حطنا في الحجز..

وفي بطء قال الشاويش:

- برضه مسؤولية..

وحين غادر القسم كان يلعن كل ما يمت إلى المسؤولية والسائلين بصلة ويكاد يضرب نفسه وهو يلومها على هذه المسؤولية التي اندب فيها كالرطل.

وحين كان يسترد أنفاسه لاحت له فكرة اللوكاندة. ولكنه نبذها في الحال فهما اثنان. وزبيدة حرمة، وخطرة، والحسبة فيها بالراحة خمسون ستون قرشا. والحكاية على الله.

ولم يتبعد الشبراوي كثيرا فقد تربع أمام جامع السيدة وجذبها حتى تهاوت بجانبه، والحياء يمنعه من البكاء فلم يكن يعتقد أن إنسانا آخر في العالم له مثل تعاسته. وبؤسه. وكان مجاذيب الست حولهما كالنمل، وحين زغردت زبيدة ضاع صوتها في تمتمة الشيوخ وبسملتهم وزقزقة النساء ودوامات الذكر.

وسر الشبراوي لهذا وانبسط فلم يعد فيما تفعله زبيدة غرابة أو شذوذا. وفي الواقع كان هو الغريب الشاذ بين هذا الجمع وكان هو التعس الوحيد كذلك. وتمني أن يفقد عقله حتى ينجذب ويسعد ويستريح مثلهم.

ورغما عنه بدأ يخرج من نفسه ومن آلامه وغيظه ويرمق ما يدور حوله. وكان ما يدور مسليا. فلا أحد يسأل الآخر ماذا يفعل أو ينهاه عن فهله. وانصرف الشبراوي بكليته إلى الشيخ الذي بجواره والذي كان ممدا مسترخيا في موازاة الحائط وقد أسند رأسه إلى ساعده وراح يرقب الناس الغادين الرائحين بلا أدنى مبالاة، وفي وجهة اكتفاء واستماع. كأنه ملك العصر الأوان.. وكان بين الحين والحين يخفض رأسه ثم يرفعها بعد مدة ويحدق في الشبراوي ويقول في صوت ممدود عميق ساخر:

- وحد الله..

فيوحد الشبراوي في سره..

ثم يغيب الشيخ ليعود ينظر إله نظراته التائهة الطويلة.

ومر واحد من فوق الرصيف ورمى بعقب سيجارة وجاء في متناول الشيخ. وفي اتزان واطمئنان وثبات مد الشيخ يده والتقطها، وشد منها نفسا عميقا وأخرج دخانا كثيرا من جوفه وهو ناعم ملتذ، وأطل بنظرة سعيدة على الشبراوي وحلقات الدخان تلهو في بطء حول وجهة وقال بكل ثبات:

- وحد الله

ولم يتمالك الشبراوي نفسه. وضحك. وتمني أن يرقد مثل رقدة الشيخ وأن يكون خالى الهم والمسؤولية مثل. وحين مرت المسؤولية على لسان وعيه التفت ناحية زبيدة فوجدها تتثاءب..

وكاد يرقص من الفرحة..

ولم يطل بها التثاؤب وشيئا فشيئا مضى جسدها يثقل ويستكين، ثم راحت في النوم.

ولأول مرة تملى الشبراوي في وجهها، لم تكن حلوة، ولكنها كانت بيضاء، وكانت صغيرة وأقدامها فيها طين وجروح وخلخال غليظ. وكانت في نومتها لا تفترق عن العاقلين.

ولاحظ الشبراوي أن ثوبها مشقوق وفخذها بائن منه. وخفض من بصره وهو يلم الثوب ويغطيها.

ثم انخرط في تخريف لا يعرف له أول من آخر مع الشيخ حتى نام.

وحين تقدم الليل، وسكنت الدنيا، وتكوم محاسيب الست يغطون بجوار الحائط كالقرود التي

أنهكها يوم مشحون بالرقص والنط كان هو يتساءل عما أزال الغضب منه فلا يجيبه إلا الشخير الذي كاد يفلق السيدة في مقامها.

وصمم أن يسهر الليل بطوله ولم يكن هذا سهلاً فالنهار قد هده والسفر أخذ منه ولم تبق لديه عافية بعد أن امتصت المشغولية وطول التفكير عافيته.

وطال عليه الليل وهو نصف نائم يرنو إلى ساعة الميدان ويستعجل الوقت الذي يتهادى في بطء ثقيل الدم.

وما جاءت السابعة حتى كان في المحافظة ينتظر الطبيب وينش الناس من حولهما كما ينش الذباب وزغاريد زبيدة تلعلع بلا انقطاع.

وأخيرا جاء الطبيب. وبعد كثير كان هو وزبيدة أمامه. وقلب الرجل الأوراق ثم قال وهو يؤشر عليها:

- خذها القصر العيني عشان تتحط تحت الملاحظة.. وأخذها الشبراوي مستسلما وخرج. ومن ترام إلى ترام وصل القصر العيني. وسأل واحدا فلم يجبه. ونظر آخر إلى زبيدة ثم مضي. ودلته تمرجية عجوز على الاستقبال.

واستمع الطبيب إلى زبيدة وهي تهتف بسقوط العمة وحياة الريس. وضحك كثيرا وهو يسألها فتجيبه وتهلوس وهي تجيب وكان حين يضحك يرتاح الشبراوي أيما ارتياح. ويطمئن. ولكن الطبيب اتخذ في النهاية طابع الجد وأخبره أن لا مكان لها في قسم الملاحظة. وكتب هذا على الأوراق.

وسأله الشبراوي وروحه تحت لسانه:

- وأعمل إيه؟..

- روح المحافظة تاني..

- تاني!!..

- أيوه تاني...

وكان وهو خارج يحمل الدنيا فوق قرنه. وفعلا راودته نفسه أن يقتل زبيدة ويقتل الأطباء كلهم ثم يعمل مجنونا وينتهي. ولكن الأمر لم يتعد حدود المراودة البريئة.

وعاد إلى المحافظة وهو يلهث. وقرأ الطبيب ما كتب الطبيب وقلب الأوراق مرة أخرى ثم فاجأ الشبراوي بسؤاله إن كان قد أحضر أحداً من أقاربها. وأحس الشبراوي بغصة وهو ينفي أنه أتى بأحد.

وأخبره الطبيب أن هذا ضروري لملء استمارة المستشفى. وأن عليه العودة ببساطة من حيث جاء. وبهت الشبراوي واصفر وهو يقول:

- أرجع الدقهلية بيها..

- أيوه...

وضربها الشبراوي في عقله فوجد أن هذا أحسن حل...

ولكنه تنبه إلى أمر ذي بال فقال للطبيب:

- مش ممكن يا بيه.. دانا معايا استمارة رجوع واحدة بس.. بتعتي...

- يا بني لازم حد من قرايبها...

- أنا في عرضك يابيه..

- يا بني دي مسؤولية ماأقدرش أتحملها..

وكان مرارة الشبراوي قد انفجرت من هذه المسؤولية. وقبل أن تتولاه ثورة يحطم معها كل ما أمامه قطعت زبيدة الحديث بزغرودة رطبة. وفي أقل من لمح البصر خلعت ثوبها المهلهل. ثم اندفعت خارجه فجأة. وجرت في حوش المحافظة والكل مذهول قد عقدت الدهشة أيديه وأرجله.

وكان الشبراوي هو أول من جرى وراءها بكل ما يملك من قوة. وحلق الناس والمساجين والعساكر عليها. وألح الشبراوي في الإمساك بها فتملصت منه وهي تهتف بسقوط العمدة. وعضته وصرخ الشبراوي ثم

هوى على وجهها بكفه وسال الدم من فمها وأسنانها. وأعيدت إلى غرفة الحكيم وهي تهتف وتتمرد وتزغرد.

وجاء قميص الكتاف وتعاون أربعة على إدخالها فيه.

وتدحرجت زبيدة على الأرض وهي تحاول التخلص والدم يسيل فيلون أسنانها ووجهها وشفتيها واللعاب يصنع الزبد حول فمها.

وحرر الطبيب الاستمارة على عجل. ووقف الشبراوي مبهوتا يرقبها. وينتفض بدنه مما تفعله في نفسها...

وذهل وهو يكتشف بعدما وضعت زبيدة في قميص الكتاف أنها مجنونة. وأنها لا تفقه مما تقول حرف. وليس لها ذنب فيما قاساه. ثم إنها لم تأكل ولم تشرب وهي معه ولا حتى حين كانت في البلد.

وشعر بشفقة غريبة تدب في نفسه وهو يراها تتدحرج وتخبط رأسها في الأرض وتتلوى.

وقال له الطبيب: خلاص...

وانتهت بذلك مهمة الشبراوي ومسؤوليته.

وكان يخيل إليه أنه سيحيي ليلة لوجه الله إذا انتهت مهمته، وتخلص من زبيدة ومصائبها. ولكنه تلقى الخبر وكأن غيره هو الذي يعنيه الخبر.

وجاءت العربية وأركبوا زبيدة فيها وهي تزغرد وتهتف بحياة جلال الريس والناس كلهم يضحكون.

وتحرك الشبراوي كالمطعون ورجاه السائق أن ينتظر دقيقة ثم جرى واشترى رغيفا من الفينو وحلاوة طحينية، وأعطاها للعسكري الذي يرافقها وهو يقول له في رجاء حار:

- والنبي توكلها وتخلي بالك منها.. اعمل معروف وحياة اللي ماتو لك تتوصا بها.. ومضت العربة..

وتسلل الشبراوي من المحافظة إلى المحطة مباشرة وقد شبعت نفسه من مصر ومن الدنيا. وبين الآونة والأخرى كان يلمح كفه التي ضرب بها زبيدة فيقشعر جسده بخجل لم يحسه في حياته...

أحمد المجلس البلدي

أنَّى تذهب كنت تجد أحمد العقلة... نجارا تلقاه. حلاقا تلقاه تاجرا في مخلفات الجيش تلقاه. ثم هو بعد هذا يجيد شغل الآلاتية، وكي الناس للشفاء من الأمراض. وجس البهائم العشر والقيام بأعمال الأبونيه وتعهدات فرق المزيكا والرقص، وإصلاح الكلوبات والبوابير في الأفراح. وحتى في "تلتيم الموتى" تلقاه.

ومع هذا كله فقد كان بساق واحدة.

أو على وجه الدقة بساقين: ساق خلقها الله وساق صنعها بنفسه على هيئة عكاز عظيم الشأن تفتن في مسحه وتنعيمه وتزويقه، وحفر الحمام والعصافير والنساء الممسكات بسيوف عليه.

وإذا كانت ساقه التي خلقها الله وسواها تمشي في أمان الله وبصمت غير مسموع. فساقه التي خلقها هو لها دبيب معروف وفي أي مكان البلد يمكن أن تسمعه.. على الترعة. وعند المحطة وفي القهوة وفوق أسطح البيوت. وأحيانا في كل الأماكن مجتمعة. ساق يستطيع أن يعدي بها المصارف، ويقفز بها من فوق أكياس القطن وينزل بها في "الباط" لشباب البلد ويغلبهم ويدخل معهم في مسابقات جري على السكة والزراعية.. والغريب أنه يفوز:

وأحمد العقلة لا تستطيع أن تحدد له سنا أو هيئة أو حرفة حتى ولا قامة...إذا أردته قصيرا وجدته، طويلا وجدته. أحيانا تبدو لك عينه اليسرى عوراء عن بعد وسليمة عن قرب وتبدو اليمنى أحيانا كذلك. وله كتف أعلى من كتف ووجه لا يريك إياه. وإنما إذا حادثته ظل كالحمار الذي تحاوره ذبابة يخفضه ويعليه. وينظر إلى جانب أو آخر كأنما يلهيك عن رؤية وجهه. ربما لعلمه أنه لا يخضع خضوعا حرفيا لمقاييس الجمال المتعارف عليها.

إذا ضحك لا يضحك. وإذا حزن لا يحزن. وإذا تكلم تهته، وهو كثير الأسفار كثير الغياب. كثير المشاريع والتقاليع يبدأ عملا من الأعمال أو حرفة من الحرف وينجح فيها. حتى إذا ما بلغ قمة النجاح تركها فجأة وبلا مقدمات إلى غيرها قيل مرة إنه لو حافظ على ما كسبه أصبح من ذوي الأطيان، ويطير هو دائما وراء القاتل مهددا إياه بعكازه لاعنا أباه وأبا الأطيان. تجده يوما في البلد ويوما في القاهرة ويوما في العريش ويوما جالسا على قهوة بلدي في السلوم يروي لعربي بعقال حادثا غريبا وقع له عينية على الحدود بين مصر والسودان ومقسما بالله العظيم ويرحمه أبيه أنه حدث...

وإذا سافر سافر بالإكسبريس فهو لا يطيق بطء القشاش وإذا ركبه ركبه في الدرجة الأولى العليا أي فوق سطح القطار وإذا أراد أن يهبط لا يهبط كبقية خلق الله في المحطات بل يهبط بين محطتين والإكسبريس مارق بأقصى سرعة.

وكل شيء فيه يتحرك ودائم التحرك... يده تتحرك لتقص شعر واحد بطريقة مدهشة للغاية. أو تمتد إلى كيس خفي وتخرج منه ولاعة غريبة الشكل صنعها بنفسه لتفرجك عليها أو تقبض على يد أخرى وتضغط عليها وتكاد تكسرها للهزل ليس إلا.

ولسانه دائم التحرك يعدل حكاية رواها أحدهم ويكذبه فيها أو يلقي إليك بخير يذهلك أو يخرجه لبنت حلوة يتصادف مرورها أمام الدكان.

وإذا حلق أحيانا لا يطلب من بعض زبائنه أجرا. وأحيانا يطير وراء الزبون من هؤلاء مطالبا بأجره مهددا بضربة عظمى من عكازه.. وممكن أن تدخل دكانه فتجد نفسك وكأنك في متحف فالدكان عشة من البوص أقامها بنفسه وطلاها بنفسه وبيضها بنفسه. ونقش أسفلها وأعلاها بنفسه أيضا. واللمبة الغاز من صنع يده. بل هو أيضا صانع البرنيطة التي تحجب ضوءها عن السقف.. وهو الذي دندشها بالرسوم والنقوش والآيات القرآنية.. ولابد أن يفتح لك صندوقا من داخل الصناديق ويخرج لك ماكينة حلاقة جديدة تلمع ويقسم بالأيمان المغلظة أنه أرسل في طلبها من ألمانيا وأنها جاءت باسمه رأسا ولا تدهش إذا عثرت في ركن من أركان الدكان على تلسكوب أو ميكروسكوب يستعمل عدساته لإشعال السجاير من ضوء الشمس أو مدفع مترليوز من مخلفات الجيش.

ثم قد تجد نموذجا مصغرا لطنبور اخترعه أحمد العقلة. يديره أمامك ويفرجك عليه قطعة قطعة معددا مزاياه التي تتلخص في أنه ينقل كمية أكبر من الماء ويمنع الفلاح من الإصابة "بالهاريسيا".. وتتفرج عليه. ولا تجد فيه أي شيء ممكن أن يميزه عن الطنبور العادي المستعمل فعلا. وتقول لأحمد هذا فيبتسم دون أن يبتسم. ويقول لك: اته.. اته.. اته... اش اش فهمك ف ف الاختراعات.. ومع هذا فلو أعجبك الطنبور أو الميكروسكوب أو حتى ماكينة الحلاقة الواردة رأسا من ألمانيا. فلا تنزعج إذا ناولها أحمد لك وأقسم بالله العظيم أنها : ما ماما هي عادت تابعاه...

غير أن أهم شيء في أحمد العقلة أنه لم يكن يطيق رؤية الأعوج ولا يصلحه. إذا رأى أن الكوبري الذي يصل ما بين البلدة والمحطة مهدد بالانهيار فسرعان ما تجده قد خلع جلبابه وأدار عكازه كالسيف الطائح في كل اتجاه. وأحضر أخشابا وأسمنتا وحجرا لا تدري من أين وأصلح الكوبري.

وإذا وجد كومة تراب تسد الطريق وتعاكس مرور العربات الداخلة إلى البلدة والخارجة منها. فستجده حالا قد استعار فأسا من دار قريبة. ونزل في التل خبطا وعزقا حتى سواه "كيف يستعمل الفأس وهو يرتكز على عكاز؟ مسالة أخرى وإذا خربت طلمبة الجامع يضيق بمحاولات عم باز القاتلة البطء لجمع ثمن إصلاحها من المصلين. وستجده حتما هو الذي لا يصلي ويتخلص بمهارة من المحاولات التي تبذل لحمله على الصلاة. ستجده قابعا بجوارها يدق "قلبها" ثم يستمع. وأحيانا لا تفعل محاولاته أكثر من أن تزيد فسادها فسادا ولكنه في أحيان يظل يقاوح حتى يصلحها.

إذا احتجت طعما لتصطاد السمك دلك على أحسن مكان تجد فيه الطعم. بل في أغلب الأحيان يستـــأذن منك دقيقة ثم يعود وفي يده كرة الطين المملوءة بالطعم. وإذا قلت إن نفسك في الذرة المشوية مثلا فثق أنه لن

يهدأ حتى يسرق لك ملء حجره ويشعل راكية نار ويشويها. وكل سعادته حينئذ أن يجلس يراقبك وأنت تلتهم الكيزان في نشوة. ووجهه قد احمر وسال مه العرق من كثرة ما هفهف على النار ونفخ وقلب الكيزان. وإذا عزمت عليه أشاح بوجهه خجلا وقال لك بسعادة حقيقية: بل بل بل بالهنا والش ش ش فا. بالهنا والشفا.

وفي أي فرح لابد ستجد عكازه يرتفع وينخفض ويزق وينزق، راقصا مرة، حاملا العريس على كتفه مرة أخرى، وهو الذي ينصب الدولاب والسرير ثم هو الذي يعشي الناس. ويزكيه الجميع ليقف على حلة اللحم المسلوق. وتلك علامة الثقة المطلقة في أمانته.. وفي أغلب الأحيان ينتهي الفرح دون أن يتعشى.. وقد يسكت عن تضحيته هذه أيام. ولكن سيرة الفرح لابد ستأتي ذات يوم فيفلت لسانه رغما عنه ويقول: ود ود وديني ليلتها ما ما ما تعشيت..

وأحمد العقلة له مع ساقه قصة مشهورة بدأت في ذلك اليوم الذي جاء فيه مفتش الصحة للكشف على أحد المتوفين في البلدة. وانتظره أحمد حتى خرج وارتبك كثيرا وهو يحاول مواجهته والحديث إليه. فقد كان به ضعف من ناحية الأطباء ويكن لهم بالذات احتراما لا مزيد عليه ربما من يوم أن بتر أحدهم ساقه.. سأله أحمد عن حقيقة الإشاعات التي يسمعها وتقول إن مستشفى القصر العيني يركب لمبتوري الساق أرجلا صناعية مجانية. وأحسن الناس من سؤاله أن الموضوع الذي كانوا قد نسوه تماما لم ينسه أحمد للحظة واحدة وأكد له الطبيب صحة الإشاعة ولكنه قال له كلاما يثبط أقوى العزائم. فقد قال إن عمل ساق صناعية مسألة في حاجة لجهود كبيرة وإقامة ووساطات لا قبل لأحمد بها ومن رأيه أن يريح نفسه ويوفر جهوده. ولم يفعل أحمد شيئا أكثر من أنه ظل يهز رأسه ويقول : ك ك ك كتر خيرك.. كتر خيرك.. وانسحب من أمام الناس الذي التفوا حوله وحول الطبيب والإشفاق بجتاحهم وكأنهم قد أدركوا في تلك اللحظة فقط أنه ذو عاهة وأنه يستحق الرثاء هو الذي يعاملونه باستمرار على أنه ند لهم فقط، ولكن على أنه جبار وقوي لا يستعصي عليه شيء.

وتلفتت البلدة ذات صباح فلم تجد أحمد، وقيل إنه سافر. وقيل إنه سيغيب.

وفعلا غاب أحمد أطول مدة غابها. حتى بدأت سيرته تطرق الأحاديث، وتكاد مصمصات الشفاه تحدد له مصيرا تعسا مجهولا. ولكن مصير مين؟

ذات عصر وجدوا أحمد نازلا من القطار ماشيا على رصيف المحطة كما يمشي الناس. بساقين. وجلابية بيضاء جديدة. وكادت البلدة كلها تجتمع بشملها حوله تستمع لقصته التي كان يرويها بكلماته التي يخرجها تحت ضغط كغطيان زجاجات الكازوزة، وتتفرج عليها بعد أن جاء من مصر وعلى ساقه الجديدة الصلبة كالحديد التي لا يستطيع الإنسان أبدأ أن يعرفها من ساقه الأخرى. ومن تلقاء نفسه كان أحمد يردد الحكاية وهو فرحان. سافر طبعا في أول قطار بأبونيهة الدائم فوق السطح. وذهب إلى القصر العيني وسأل وقطع تذكرة وعرف اسم الطبيب الذي عنده الكشف، بل ذكر للناس أسماء جميع أطباء القصر العيني ورتبهم مضيفا إليهم ألقابا خاصة من عنده.. وسأله الدكاترة أين بترت ساقه؟ وبعشرة قروش أثبت لهم أنه عمل العملية في القصر العيني نفسه.. وقالوا له شهادات من الشؤون الاجتماعية أحضر لهم شهادات، تعهدات

جاء بالتعهدات، عفاريت زرق أحضر لهم العفاريت الزرق. وأخيرا وجدوا أن الطريقة الوحيدة للتخلص من إلحاحه وإصراره ومناكفاته أن يصنعوا له الساق. فبدءوا يتخذون إجراءات صنعها ولكنهم أنذروه أنها ستأخذ وقتا طويلا ربما شهرا وربما أكثر فقال لهم: على مهلكم قوي.. معاكم لحد سنة واتنين، وظل وراءهم حتى عملوها.. وها هي ذي ولكن السامعين كانوا يتركون قصة الساق وتشغلهم أسئلة أخرى.. كيف وأين استطاع أحمد أن يقيم كل تلك المدة وهو الوحيد الساق في البلدة الكبيرة التي يتوه فيها الناس؟ فيقول أحمد ببساطة إنه كان ينفق على نفسه من متاجرته في الزجاجات الفارغة التي كان يبيعها للمترددين على المستشفى. وأحيانا كان يسرح بصندوق ببس أو برطمان هندي.

ويبقي سؤال آخر أين كان يقيم ويبيت؟

وتأتي إجابته:

- ف ف ف القصر ياولاد..

فيدهش الناس ويسألونه:

- داخلية يعني؟!

فيجيب وهو ضيق بغبائهم وبالسؤال:

- لا لا لا لا لا ... داخلية إيه! ع ع ع الباب.

وبدأ أحمد يحيا في البلدة مستمتعا بساقه الأنيقة الجديدة. واضطر لشراء حذاء لقدمه الأخرى فالساق الصناعية مجهزة بحذاء وجورب.. وحين أصبح من ذوي الأحذية وجد أن من المحتم أن يتخلى عن كثير من الأعمال التي يقوم بها.. لا جري، ولا هزار ولا طلوع نخل أو نزول ترعة، وهمه كله أصبح المحافظة على الساق الجديدة وإبقاء حذائها نظيفا.

وإبقاء الجلباب أكثر نظافة ليتلاءم مع نظافة الحذاء فلا نوم على الأرض، ولا حلاقة غلا للزبائن النظيفين بل حتى هؤلاء الزبائن أصبح عليه أن يحلق لهم فوق كرسي إذ لم يعد بوسعه أن يتربع خلف الزبون أو أمامه على الأرض. والسهم الأهوج المندفع الذي كأنه تضاءل وهبطت سرعته حتى أصبح يمشي كالناس العاديين وربما أبطأ. محافظة على ساقه وتمسكا بالوقار الذي تفرضه عليه وحتى السفر أصبح المركز القريب هو آخر حدوده. وإذا سافر يركب كبقية المسافرين بتذكره وصعود على مهل وهبوط باتزان وأدب .. وأفكار غريبة أصبحت تناثر من فمه لزبائنه الذين قل عددهم ومعارفه الذين قلت تحيته لهم وتحيتهم له. أفكار بنعل ورباط وحمالات أفكار عن فانلات حمراء بأكمام لا بد من اقتنائها ومحفظة والصرف على الأصحاب والشاي الذي يعبه طول النهار بغير حساب. لماذا لا يحاسب ويوفر ويبدأ في مفاوضة الحاج محمد على امتلاك الأمتار القليلة التي يقوم عليها الدكان؟ وبدل الشحططة والمبيت كل ليلة في مكان. لماذا لا يبدأ يستقر ويبحث له عن زوجة كبقية خلق الله وقد زالت العاهة ولم يعد يخشى أن تنظر امرأته إلى

غيره من الرجال؟ أفكار ومشاريع تكفلت بتعكير باله الرائق ومزاجه، وتحويل ضحكاته العالية وقهقهاته إلى نوبات غضب وزعيق. والطلمبة تخرب ويأتي عم باز يستعرضه يرجوه فيخجل ويقول: حاضر يا عم باز ولا يذهب ويكسل ثم يقول لنفسه إشمعنى أنا يعني اللي أصلحها؟ مانا زي زي الناس. وما دام الناس يصلون ولا يصلحون الطلمبة أو يرفعون الأكوام من طريق العربات. فليبدأ هو يصلي وليبدأ يفعل مثلما يفعل الناس. والناس تأكل وتلبس وتتزوج ويحيط كل منهم نفسه بما يحميه من ضربات الزمان فلماذا يشذ هو ويبعثر جهوده وما لديه دون خوف من ضربات الزمان؟

بل المضحك إنه كان لا يغضب أبدا إذا عايره أحد بساقه المقطوعة أو أشار إلى عاهته على سبيل المزاح. كان يضحك ولا يحس أبدا أنه عوير أو أهين. من يوم أن ركب الساق وأقل إشارة إليه أو إليها تجرحه، حتى أصبح أشد ما يؤلمه أن يكون جالسا محترما في مكان ويمد أحدهم يده خلسة ليتحسس ساقه، وكثيرا ما يتحسس السليمة فيشتعل أحمد غضبا ويثور حتى صار له في كل يوم خناقة وضرب وتحقيق.

وفي يوم وجدته البلدة عائدا من غيبة فوق سطح القطار ولم يهبط إلا بعد أن تحرك القطار. هبط هائجا كالزوبعة يجري ويضحك ويطير وراء الناس كالمجنون حتى بدأ البعض يتساءل إن كان قد فقط عقله حقيقة. ولكنه لم يكن قد فقد عقله. كان قد فقد ساقه الصناعية واستبدلها بعكاز من المشمش أيضا وقد أضاف إليه تحسينات.. وكان سعيدا جدا وكأنما أفرج عنه بعد سجن أو خرج براءة من اتهام يتطلع إلى البلد والناس وكأنه يراهم من جديد وكأنه المسجون حين تفك عنه القيود. وانهالت عليه الأسئلة تسأله عن ساقه وأين ذهبت؟ وقال أحمد يومها حكاية وعدل فيها ثم عاد ونفاها وروى حكاية أخرى وإلى الآن لا يزال يروي عن ساقه في كل مرة قصة مختلفة مرة يقول إنه كان جالسا على قهوة في المنصورة واضعا ساقا فوق ساق. وكانت الساق الصناعية هي العليا.. استرعت انتباه واحد من الأفندية المحترمين الجالسين وسأله عنها وفصلها له بخمسة جنيهات ليشتريها لأخيه المبتور الساق ومن هنا لهنا أوصل سعرها إلى عشرة ووجد أحمد الثمن معقولا ووجدها فرصة فخلعها وقال : خذها مبروكة عليك!

ومرة يقول إن أولاد الحرام نشلوا الساق وهو نائم بها في منتزه في طنطا. وإنه حين ذهب إلى القسم ليشكو للضابط نشل ساقه ظنه الضابط مجنونا وكاد يحيله إلى مستشفى المجاذيب.

ومرة يقول إن له صاحبا كان يعمل سواقا في بلاد فوق وحدثت له حادثة بترت ساقه فيها واستعمل العكاز ولكنه حين أراد أن يتزوج قصده ليستأجر منه الساق ليتواجه بها أمام العروسة وأهلها. ولكن أحمد رفض أن يؤجرها له إذا كان سلف معلشي.. إنما إيجار لأ...

وهكذا أخذها الصاحب على سبيل القرض وبلا رهن، ولكنه بعد الفرح استحلاها وطمع عليها ولم يردها إلى يومنا هذا...

أكثر من قصة يرويها أحمد عن فقد ساقه. وينهيها دائما بضحكة عالية مدوية وبقوله: في داهية دا دا كأن الواحد كانت رجله مقطوعة.

ثم يترك السامعين مبهورين ويجري وراء واحد سبه أو خطف طاقيته أو ساهاه واستولى على الحقيبة الخشبية التي حمل فيها عدة الحلاقة يندفع عكازه كالقذيفة الموجهة طائرا في الهواء ثم يتبعه بجسده في قفزات هائلة سريعة ترج الأرض.

فهرس